"نتخيل أن الزمن يمر، بينما تبقى الأماكن المُحيطة بنا كما هي دائمًا"

# العزلة



كلاوديو موانديني

ترجمة: مريم خالد




روايات مترجمة



كان الزمان لا يزال في عصور ما قبل التاريخ، وكان الشتاء هو الصمت..

**«أوجو رونفاني»**





# 1



أرسلت التباشير الأولى للخريف "أديلمو فاراندولا" إلى القرية، ليجلب بعض المؤن. في أثناء مغادرته الكوخ في الصباح، وجد أن الجليد الذي غطى العشب المحيط ببيته يأبى أن يذوب. تهب رياح ثلجية قاسية عبر الوادي وتزحف نحو التصدعات في جدار الكوخ فتصدر صوتًا أشبه بالطَّرق على بابه طوال الليل والنهار. تصبح السحب ثقيلة وتزداد كثافتها إلى الحد الذي لا تستطيع عنده أن تفرق بينها وبين جبال القرية.

يذهب «أديلمو فاراندولا» إلى القرية مرتديًا حقيبة ظهره؛ فمن الأفضل أن يذهب الآن قبل أن يتساقط الجليد فجأة ويصبح الطريق خطرًا. يحتاج «أديلمو فاراندولا» إلى اللحم والنقانق المجففة والنبيذ والزبد. كان قد خزَّن كمية كبيرة من البطاطس من قبل، وهي الآن ملقاة بالإسطبل المظلم، تمتد براعمها الذابلة كما لو أنها تود أن تدغدغ شخصًا ما. إلى جانبها، يوجد بعض أدوات الزراعة القديمة؛ كالدلاء الخشبية واللجام ومُمخضات الزبد والفُرش. ستكفيه تلك الكمية من البطاطس طوال مدة الشتاء. كذلك لديه كمية وفيرة من التفاح أيضًا، صناديق من التفاح ذي طعم لاذع بفعل الشتاء. يحب "أديلمو فاراندولا" التفاح الذي أوشك على الفساد، حيث ينحشر بين أسنانه وتتشبث رائحته بأنفه. يشبه مذاق قطعة لحم من فريسة عُلِّقت حتى جف لحمها بعد صيد مثمر. يوجد الكثير من التفاح الذي يكفي لفصل الشتاء، لكنه

ما زال بحاجة إلى النقانق والنبيذ.. النبيذ والزبد.. الزبد والملح.

ينحني «فاراندولا» بسبب الرياح بينما يشق طريقه نزولًا إلى القرية. تعد رحلة الذهاب صعبة على غير العادة ويكاد يضحك عندما يفكر كيف ستكون عودته أكثر صعوبة حيث سيضطر إلى صعود التل مرة أخرى في هذه الرياح. ينزلق الطريق إلى أسفل عبر الأخاديد ونحو الهضاب. يمتلئ الطريق من وقت إلى آخر بالأشجار المقطوعة المتعفنة والعشب الطويل والحصى الذي يملأ حواف المنحدر، ولكن «فاراندولا» يعرف جيدًا كيف يشق طريقه.

هنا في منتصف الطريق إلى القرية، يحول الخريف أشجار الصنوبر إلى اللون الأصفر الباهت. فالخريف في هذا الجزء ليس كالخريف المبهج الذي تجده أسفل الوادي، حيث تزين كروم العنب وأشجار «النغت" وأشجار الكستناء الطبيعةَ بألوانها. هنا تموت الأوراق على الأغصان وتجف سريعًا حتى قبل أن تسقط.

تعوَّد «أديلمو فاراندولا" أن يذهب إلى القرية في كثير من الأحيان ليستمع إلى غناء الفرقة في أثناء الإجازات والأعياد. كان يختبئ خلف جدران المنازل ويستمع إلى النغمات المشوشة التي تصل إليه. ولكنه سرعان ما أوقف هذا الطقس، ففي إحدى المرات، رآه شخص وجاء إليه فاردًا ذراعيه ليتعرف عليه وأراد أن يبدأ معه محادثة. أما الآن فهو يقف عند أشجار الزان ليستمع إلى الفرقة من هناك، مختبئًا جيدًا خلف الأوراق وجذوع الشجر. تصل إليه الموسيقى في صورة فوضى من إيقاع الطبل و»الكونترباص" ونغمات الكلارينت الصاخبة التي ترتعش فوق النسيم، ولكن هذا كافٍ بالنسبة إليه. من وقت إلى آخر، يستطيع أن يتعرف على بعض النغمات وتحركه إلى درجة أن يغنيها لنفسه ولكن بصوت خفيض. فهو لا يريد لأحد أن يسمعه ويأتي إليه ويصافحه ويسأله عن أشياء لا يعرفها أو لا يتذكرها أو لا يهتم بها أو لا يريد أن يتحدث عنها.

بعد بضع دقائق، تشعره الفرقة بالغثيان، حين يفكر في ذلك العدد الكبير من الناس مصطفين بجانب بعضهم بعضًا، صاخبين ومبتهجين. لذلك يبتعد بعد

أن يبصق على الأرض ويبدأ رحلته مرة أخرى صاعدًا التل. ظل يفكر في أثناء عودته أن الفرقة سيئة وأن سكان القرية أغبياء، وأن تلك الموسيقى عديمة الفائدة على أي حال.

لكنه في بعض الأحيان يحلم بالفرقة وفي أحلامه يستمع إلى أنغام غاية في الجمال وتلعب الفرقة ببراعة. ينضم إليهم «فاراندولا» بكل شجاعة ويغني مع الموسيقى بصوت عالٍ، الشيء الذي ربما يُذكره بذكريات شبابه البعيدة لو كانت لا تزال حية بخياله. ذكريات الرقص مع الفتيات، وبالأخص جداله وشجاره مع الملاحقين الآخرين. وذكريات محادثاته الطويلة معهن والتي يتكون معظمها من الصمت والتنهد والتجشؤ الناتجة عن كثرة الشرب.

***

يسيطر شعور غريب على «أديلمو فاراندولا» عندما يصل إلى أول بيت بالقرية. ينظر حوله ويشعر أن الأشياء أصبحت أقل غرابة مما عليه في كل مرة يأتي فيها إلى القرية ليجلب ما ينقصه بعد شهور من العزلة في الجبل. يبدأ جولته ويسير بثقة نحو الشارع الرئيسي - وهو الشارع الوحيد بالقرية الجدير بأن يطلق عليه اسم شارع - ويجد طريقه للمتجر بسهولة غير مسبقة. يطل المتجر على ميدان وتقع أمامه كنيسة، تعج نافذة المتجر بالأدوات والهدايا المليئة بالغبار، والتي فقدت ألوانها من تأثير الشمس. يبيعون جميع الأشياء في هذا المتجر؛ الطعام وأدوات الزراعة والأقمشة والجرائد وبعض الحلي الرخيصة للسيدات.

يحني «أديلمو فاراندولا» رأسه وهو يدخل من باب المتجر، تمامًا كالإيماءة التي يفعلها الناس لإبداء الاحترام وهم يدخلون الكنيسة، أو كما يفعل هو دائمًا وهو على باب الكوخ حتى لا يصطدم رأسه بالخشبة العريضة بسقف الباب. تنظر إليه السيدة التي تقف خلف الخزينة في دهشة وتبتسم:

- صباح الخير، من فضلك دع الباب مفتوحًا، شكرًا.

يرد «أديلمو فاراندولا» ببطء:

- صباح الخير.

مر الكثير من الوقت منذ المرة الأخيرة التي تحدث فيها إلى شخص ما، لذلك فهو يصارع ليخرج الكلمات من فمه كما لو أنها كلمات غير مألوفة وصعبة النطق. يغلق «فاراندولا» الباب وراءه من شدة ارتباكه.

- هل نسيت شيئًا؟

- لا، أنا.. أحتاج إلى بعض الأشياء.

- هذا ما أعنيه. أشياء نسيتها المرة السابقة.

يتمتم «فاراندولا»:

- المرة السابقة!

- نعم، المرة السابقة، متى كان ذلك، الثلاثاء؟ الأربعاء؟ ربما أنت تتذكر.

- أ.. أتيت لأجلب بعض المؤن.

- نعم، أرى هذا بوضوح. ولكن بما أنك أتيت الأسبوع الماضي وعلى وجهك هذه النظرة نفسها لتتزود بما ينقصك للشتاء، أتساءل إذا كنت قد نسيت شيئًا. وإذا كان الأمر كذلك، فما الشيء بالغ الأهمية الذي قد تكون نسيته وجعلك تقطع تلك المسافة مرة أخرى صعودًا إلى...؟ أيًا كان ذلك الشيء الذي تذهب إليه، لم أفهم قَطُّ أين تسكن.

تعودت السيدة إجراء العديد من المحادثات، ولكن بالنسبة إلى "أديلمو فاراندولا"، الذي تعود شهورًا من الصمت، فهو غير قادر على الاستماع ولا عن التعبير بما يجول بخاطره.

- وباعتبار أنك قد زودت نفسك بقدر ليس بقليل من الأشياء في المرة السابقة - يوم الثلاثاء أو الأربعاء من الأسبوع الماضي - أتساءل ما الذي يمكن أن تكون قد نسيته. أو هل أتيت فقط لتراني؟

تصدر السيدة ضحكة عالية تجعل المسكين «فاراندولا» يرتعش من صخبها ويتمنى لو بإمكانه الهروب دون شراء أي شيء.

بدلًا من ذلك، يبذل «فاراندولا» مجهودًا كبيرًا ويتكلم بتلعثم:

- لـ.. لكنني لم أنزل إلى القرية منذ أبريل الماضي.

- لكنني رأيتك هنا! في يوم الثلاثاء أو الأربعاء! هل تكذبني؟

- لا، أنا..

يدخل زبون آخر إلى المتجر، عجوز من القرية اعتاد أن يصلح الأدوات. صوت الأجراس المعلقة على باب المتجر يجعل «أديلمو فاراندولا» يقفز فجأة إلى الوراء ويحتمي بزاوية مظلمة.

يصدر العجوز ضحكة في الهواء ويسأل السيدة:

- هل هناك خطب ما؟

تنادي السيدةُ العجوزَ الذي دخل للتو ضاحكة:

- "بينيتو"! يحاول السيد "أديلمو" أن يقنعني أنه لم يأتِ إلى هنا الأسبوع الماضي ولم يشترِ المتجر بأكمله استعدادًا للشتاء. دع الباب مفتوحًا، شكرًا.

لا يقول العجوز شيئًا ويضحك مرة أخرى وهو يمرر إصبعه فوق شاربه.

يتلعثم «فاراندولا" مرة ثانية:

- لم.. لم آتِ إلى هنا منذ أبريل.

يستمر العجوز في الضحك ولا يقول شيئًا.

- "بينيتو"، أخبر السيد «أديلمو» أنه جاء إلى هنا يوم الثلاثاء أو الأربعاء واشترى المتجر بأكمله.

يضحك العجوز ويقول:

- إممم، هذا صحيح، رأيتك أنا أيضًا.

- ولكن أين؟

- هناك بالشارع، وكنت مثقلًا بالعديد من المشتريات.

- أرأيت، ماذا قلت لك؟

تنهي السيدة الحوار بانتصار وتضيف:

- لكن السيد "أديلمو" دائمًا ما يحب المزاح متظاهرًا بأنه لا يتذكر.

حان دور «أديلمو فاراندولا» لكيلا يقول شيئًا، فهو لا يمزح أبدًا ولا يعرف كيف يمزح. لا يعرف حتى ما المزاح، وإذا خطر بباله في مرة أن يلقي مزحة، فلن يفهمه أحد وسيظنونه مغفلًا مثلما يحدث الآن.

تخاطبه السيدة الآن بنبرة حادة إذ لديها زبون آخر ينتظر:

- إذًا، ما الذي تريده؟

- حسنًا، أ.. أريد..

- نعم، أنت تريد..

- لا أتذكر تحديدًا ماذا اشتريت في المرة السابقة.

- ماذا تعني بأنك لا تتذكر؟

يضحك العجوز بدهشة من "فاراندولا" ونسيانه المستمر.

- لا أتذكر ماذا اشتريت.. ولكن أريد بعض الملح.

- ولكنني أعطيتك ثلاثة أكياس المرة السابقة.

- والزبد..

- أعطيتك ثلاثة كيلوجرامات، ماذا ستفعل بكل تلك الكمية؟

- والنبيذ..

يضحك العجوز قائلًا:

- لا يمكن لأحد أن يأخذ كفايته من النبيذ أبدًا.

- الخمسة لترات لم تكن كافية؟ عندما رأيتك تخرج من المتجر وأنت تحمل كل تلك الأشياء، لم أظن أنك ستستطيع حملها كل تلك المسافة إلى الجبل؟

كيف فعلت ذلك؟

ثم غمزته قائلة:

- لا تخبرني أنك أتيت لأنك استهلكت كل ما اشتريته المرة السابقة.

يستمر العجوز في الضحك:

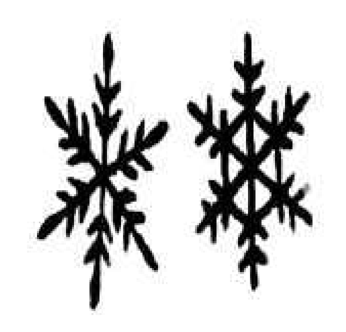
- دائمًا ما ينفد النبيذ بسرعة.

في النهاية، وحتى يتجنب المغادرة فارغ اليدين، يقرر «فاراندولا» شراء زجاجتين من النبيذ الأحمر وثلاثة جوارب صوفية يصل طولها إلى الركبة. تستقبل منه السيدة الأوراق النقدية المتسخة الملفوفة التي أعطاها إياها بتنهيدة ثم يخرج «فاراندولا» من المتجر إلى الرياح الشتوية الباردة.

تقول له السيدة بصوت عالٍ:

- دع الباب مفتوحًا!

تبدأ ذكرى ما تتشكل داخل رأسه، وإن كانت ذكرى مبهمة وغير واضحة. فكل شيء حوله يبدو مألوفًا أكثر مما ينبغي أن يكون عليه. لقد ذهب بالفعل إلى المتجر مؤخرًا، واشترى المؤن للشتاء. لقد كانت السيدة محقة. يتذكر الآن صورته وهو يصعد الوادي، محملًا بمشترياته الثقيلة. يتذكر العرق والألم الذي اشتعل في كتفيه وظهره وصوت أنفاسه المتقطعة التي - من شدة ارتباكه - ظن أنها أنفاس شخص ما يتبعه، فكان يتوقف بين الحين والآخر ليسأل «مَن هناك؟». يهز «فاراندولا» رأسه ببطء بينما يسلك الطريق الذي يؤدي إلى خارج القرية. يمر هذا الطريق الوعر ويلتف حول الحقول والنباتات المليئة بالروائح الكريهة لبواقي الطعام وصفوف الكرنب العفن. يتحول الطريق بعدئذ إلى ممر ضيق يزداد انحدارًا أكثر فأكثر، عندما يلتقي صفوف أشجار الصنوبر ثم يبدأ في الصعود بعد ذلك نحو مراعي جبال "الألب" أعلاه.



# 2



يتمكن "أديلمو فاراندولا" من العودة إلى الجبل وهو يشعر بكل ثقة وإحباط في الوقت نفسه، فهو لا يتذكر شيئًا عن ذهابه إلى القرية، ولا يتذكر حتى أنه نسي. من وقت إلى آخر، ينتابه شعور مُلح يأبى أن يتركه وهو أنه أصبح أضحوكة سيدة المتجر والعجوز الغبي. «يجلسون هناك في انتظار أن أنزل إلى القرية لكي يجعلوا مني مزحة، هؤلاء القرويين!". قالها كما يقول الناس في القرية: «أهل المدينة أولئك!" ثم يبصقون على الأرض بعد ذلك، تمامًا كما يفعل «فاراندولا» الآن.

"سأنظر في الإسطبل أول شيء عندما أصل. هذا أول شيء سأفعله. هناك أضع كل ما أشتريه. فالمكان بارد هناك ولا يفسد فيه الطعام أبدًا. سأتفحصه فور أن أصل وإن لم أجد شيئًا، سأنزل إلى القرية وألقنهم درسًا».

مع كل خطوة يخطوها "فاراندولا"، يخطط لانتقامه ويستعرض خياراته: إما أن يحرق المتجر، أو ينصب فخًا للعجوز، أو يبرحهما ضربًا. يمنحه التخطيط للانتقام القليل من السلام والرضا. بالطبع هذا لا يضاهي تأثير الثأر لنفسه على أرض الواقع، ولكن على الأقل يرضيه، خاصة بعد قضاء سنوات من العزلة تختلط فيها الأحلام بالواقع.

في نهاية حلم يقظته - الحلم الذي تحترق فيه القرية بأكملها ويصارع رجال الإطفاء لإخماد النيران الملتهبة ويعلو الدخان طائرات تحمل مياهًا تحاول إطفاء النيران ولكن كل شيء عديم الجدوى - يجلس «أديلمو

فاراندولا» على صخرة بعد أن أصبح الآن أكثر هدوءًا وترتسم على وجهه ابتسامة. سيتفحص الإسطبل أول شيء بالتأكيد.

اختفى الآن ذلك الشعور المزعج الذي كان يأتيه من قبل وهو أنه أصبح أضحوكة القرية. سيتفحص الإسطبل، فكل شيء جائز. أخمدت الآن النيران الخيالية التي كانت تشتعل بحلمه ويتصور «فاراندولا» نفسه وهو يلقي نظرة بداخل الإسطبل. يحاول جاهدًا أن يتبين محتوياته من وراء الدخان، فيجد الطعام والنبيذ بالداخل.

في منتصف أشجار الصفصاف، حيث يبدأ الطريق في الصعود إلى أعلى بدون وجود أي انحناءات لتخفف من الانحدار، يسمع «أديلمو فاراندولا» صوت تنفس ثقيل وراءه. يسأل وهو يلهث من التعب:

- مَن هناك؟

لا أحد يرد ولكن اللهاث لا يتوقف.

بالنهاية يظهر رأس كلب من وراء عش نمل ممتلئ. كلب عجوز لا يمكنك تحديد سلالته، لسانه متهدل وأذناه إلى أسفل وعيناه - لكل واحدة منهما لون مختلف - متسعتان إلى آخرهما.

ينحني «فاراندولا» ليلتقط حجرًا ويلقي الكلب به. لا يجفل الكلب، تاركًا الحجر يصيب رقبته وبالكاد يصدر أنينًا.

يصرخ «فاراندولا» على الكلب قبل أن يبدأ في المشي مرة أخرى:

- هيًا اذهب بعيدًا!

يستمر الكلب في تعقبه ورأسه منحنٍ إلى أسفل. يوحي مظهره بأنه يتضور جوعًا. يتركه «فاراندولا» يتعقبه لبعض الوقت ويتظاهر بعدم الاكتراث فيحاول أن يصفِّر، على الرغم من أنه لا يعرف، فيصدر هسيسًا بدون نغمة من بين أسنانه.

***

يتفاجأ «فاراندولا" عندما يرى الجدران الصخرية التي تحيط بالمرعى حول بيته. لقد كان يتعقب طريقًا مألوفًا دون تفكير، خطوة بخطوة، ووجد نفسه قد وصل.

يتمتم لنفسه بدهشة تجعل الكلب يعوي: «المرعى!».

يلقي «فاراندولا» نظرة على الكلب فينبح الكلب مجددًا بفضول. يتمنى لو بإمكانه أن يقول له شيئًا، ولكنه لا يعرف ما يمكن أن يقوله لكلب فيلتزم الصمت. يفكر «فاراندولا»: "سأصفر له بعد قليل". فالكلاب تحب صوت الصفير، سأصفر له قليلًا وأرى ماذا سيفعل. يتدلى لسان الكلب من كثرة العطش والإنهاك، فيرتشف بعض الماء من بركة متسخة تكونت على جانب الطريق. يدعه "فاراندولا" يرتشف الماء؛ فهو نفسه يشعر بالعطش.

يتذكر النبيذ المخزن بالإسطبل عندما يشعر بجفاف في حلقه فيمشي تجاه الإسطبل المظلم البارد، والذي كان يضم بعض الأبقار يومًا ما، لكنها اختفت فجأة.

يكلم نفسه: «لا أحد يعلم ماذا حدث لتلك البقرات، ربما ماتت وعلى الأرجح أتى شخص وسرقها. يترك المرء نفسه ليلهيه شيء ما ثم يأتون ويسرقون بقراته بهذه السهولة. لم يحدث ذلك معي فقط، فهم دائمًا ما يسرقوننا نحن الفقراء!».

يذهب إلى الإسطبل ويفتح الباب ويجد الخمسة لترات من النبيذ موجودة هناك بالظلام بجانب مِمخضة الزبد المكسورة. كذلك توجد صناديق التفاح التي تشبه رائحتها رائحة اللحم المجفف، كما توجد البطاطس التي تمتد براعمها كأنها أرجل صغيرة. هناك أيضًا وعاء الكحول والحزمة التي تتدلى منها النقانق المجففة. يمكنه أن يتبين الأرغفة التي أصبحت جافة وفسدت بفعل سوس الدقيق. كان كل شيء هناك، كل الحطب الذي جمعه طوال الصيف، زجاجات اللبن، والزبد، كل شيء.

تجعل رائحة التفاح الفاسد الكلب يعطس، يريد أن يدخل ويتشمم ما

بالداخل. يخبره «فاراندولا» بألا يدخل. إنها الكلمة الأولى التي يخاطب بها الكلب: «لا». ولكي يوضح ما قاله، يوخزه «فاراندولا» في مؤخرته. يفهم الكلب ويتراجع ورأسه مطأطأ ويخرج وهو يشعر قليلًا بالشكر الذي تشعر به الحيوانات عندما تشم رائحة طعام متخمر.

***

يترك «فاراندولا» الكلب يتعقبه طوال اليوم، متظاهرًا باللامبالاة أحيانًا والشفقة أحيانًا أخرى. يتركه يطلق أنفه داخل الكوخ حيث يأكل وينام ويقضي وقته. يصل به الأمر أحيانًا إلى أن يدعوه للدخول بدلًا من جلوسه بخجل عند عتبة الباب.

يسأله «فاراندولا»:

- ماذا تفعل هناك؟ تعالَ إلى هنا. اغلق الباب وإلا سيصبح المكان باردًا بالداخل.

يتقدم الكلب بحرص. يذهب «أديلمو فاراندولا" بعد بضع دقائق ليغلق الباب، ثم يجلس بجانب الموقد منتظرًا أن تأتيه القوة ليشعله. يعم البرد والرطوبة داخل المكان، وتتسلل البرودة إلى عِظامه وتشكل حلقات مؤلمة حول عينيه. يغلق "فاراندولا" عينيه وهو يجلس على كرسيه ويترك رأسه الثقيل يقع ثم يغفو بعد ذلك.

يستيقظ «فاراندولا» ويجد الكلب لا يزال بمكانه أسفل قدميه، ربما أقرب مما كان عليه من قبل. ينظر الكلب إليه وهو يسند رأسه فوق قدميه وأذناه مرفوعتان. يتثاءب «فاراندولا» ويتجشأ ثم يطلق ريحًا فتهتز كلتا أذني الكلب. يذكّر «فاراندولا» نفسه بأن الظلام قد حل وحان الوقت ليشعل الموقد.

تأخذ النار بعض الوقت لكي تشتعل في الموقد الأسود، ولكنها تشتعل في النهاية وهي تتغذى على الورق الرطب الذي قطعه «فاراندولا» من مجلات قديمة والأغصان والكحول. في بادئ الأمر، لا توحي النيران بأنها قادرة على

تدفئة المكان، ولكن بعد مرور نصف ساعة، بعد أن يحل الظلام تمامًا بالخارج وتصبح البرودة غير محتملة، توزع النيران حرارتها وتملأ بدفئها المكان بالداخل.

يسأله «فاراندولا» بعد برهة من الوقت:

- هل يعجبك ذلك؟

لطالما وجد «فاراندولا» التحدُّث إلى نفسه أمرًا طبيعيًا، ولكن حديثه مع كلب لا يشعره بالراحة.

يكرر سؤاله مرة أخرى باذلًا مجهودًا أكبر:

- هل تحب ذلك؟

يفكر «فاراندولا» بأنه لو احتفظ بالكلب معه دائمًا، فعليه أن يبدأ بتدريبه فورًا، فلا أحد يعلم، ربما يكون كلب مزرعة في الأصل، فيسأله:

- هل أنت كلب مزرعة؟

يعتدل الكلب ويجلس منتظرًا منه شيئًا.

- هل أنت كلب مواشٍ؟

يصدر الكلب نباحًا.

يرد «فاراندولا»:

- سيساعدني ذلك مع الأبقار.

لكنه سرعان ما يتذكر أنه مرت سنوات على عدم وجود أي أبقار، وأن الإسطبل الآن مظلم وبارد ولم تعد أرضيته كما كانت دائمًا من قبل؛ ملطخة بفضلات الماشية.

يتابع «فاراندولا» كلامه:

- لا يهم، هل يمكنك المراقبة؟ هل يمكنك عض من يثيرون المتاعب؟

يصدر الكلب نباحًا ويأخذ «فاراندولا» نباحه كإجابة بنعم عن سؤاله، ثم

يضيف:

- لأننا نتعرض للكثير من المشاغبين هنا بهذه المنطقة، لذلك انتقلت إلى أعلى الجبل فلا يمكنهم أن يصلوا إليّ، هذا الصيف على سبيل المثال..

ثم يتوقف ليزود النيران.

- جاءني ثلاثة مغفلين يرتدي كل منهم حقيبة ظهر كبيرة. استمروا بالحديث معي دون توقف، لن تصدق. أخبرتهم مرارًا أنني لا أمتلك أي شيء. أرادوا أن يدخلوا إلى الكوخ وأن يسرقوا الجبن الخاص بي. «لا أملك أي أجبان». أرادوا أن يلتقطوا لي صورة، أرادوا أن يضحكوا عليّ ثم يذهبون إلى بيوتهم، أنا متأكد من ذلك. «لا أريد ذلك، لا أريد أن يصورني أحد»، ولكنهم استمروا فيما يفعلون، فاضطررت إلى أن أرميهم ببعض الحجارة. من حسن الحظ أن الحجارة هنا لا تنفد أبدًا، فهي تغلب العشب في كثرتها. رميتهم بالمئات من الأحجار الصغيرة، المئات! أظن حتى أنني أصبتهم، هؤلاء المغفلون! ركضوا بعد ذلك نحو الطريق مرة أخرى وهم يتعثرون.

يضحك «فاراندولا» لتذكره ذلك الموقف ثم يسأل الكلب:

- هل بإمكانك أن تعض مثل هؤلاء المشاغبين؟ سيكون ذلك مفيدًا لي. ولكنني سأحتفظ بك على أي حال، ليس لأنني أستمتع بصحبتك، فأنا لا أحتاج إلى أي صحبة، ولكن في حال نفدت المؤن قبل أوانها، فستكون مفيدًا لي.

يستمع الكلب بانتباه لكل كلمة يقولها الرجل.

- هناك العديد من البلدان حيث يأكلون فيها الكلاب، لا أجد أي شيء خطأ في ذلك، فأنتم حيوانات قبل كل شيء. فلا بأس بهذا ما دام ستسوي اللحم جيدًا.

يشتعل اللهب أكثر بالموقد.

ينبح الكلب ويكرر «فاراندولا» مرة أخرى:

- لا أجد أي شيء خطأ في ذلك.

***

في الصباح التالي، يخرج «أديلمو فاراندولا» والكلب ليستنشقا بعض الهواء ويقضيا حاجتهما أمام واحدة من الأحجار المتكتلة الهائلة الحجم.

تمتد المراعي في وادٍ مجوف، أرضيته الخضراء منقطة بصخور وأحجار تجمعت وكوّنت كتلًا ضخمة. على مدى قرون، جمع المزارعون تلك الأحجار على هيئة كتل كبيرة؛ لكي يتمكنوا من زراعة أجزاء من الأرض ويستفيدوا منها.

استمر الحصى والأحجار بالانزلاق من المناطق المرتفعة بسبب هبوط أجزاء من الأرض وحركة الصخور الدائمة، لكي تغطي المناطق التي أزال المزارعون الحصى منها. حاول العديد من الأجيال السابقة إنقاذ بعض النباتات والعشب التي تنمو في هذا الوادي غير الودود، نباتات مثل الحوذان وأجراس الثلج وزهور الربيع والبرسيم والحبوب من أجل أبقارهم. وقد ميز العناد الناتج عن ضيق الأفق والفقر تلك الأجيال.



فقط منذ القرن الماضي عندما أدرك المزارعون أنه لا طائل من زراعة ذلك الوادي الممتلئ بالحصى والحجارة، وأنه من الأفضل أن يهاجروا إلى مكان آخر غير مهدد بالانهيارات الصخرية التي تسبب تجمع الحصى، تاركين الوادي يمتلئ بالحصى وفتات الصخور كأنه مجرى نهر جفت ماؤه. الآن يخيم الصمت على الوادي، وتسكنه مجموعة من الصخور التي تشكلت على هيئة أناس كأنهم يراقبون المارة القلائل الذين يمرون من هناك.

تسطع الشمس وينادي «فاراندولا" الكلبَ ليشاركه استمتاعه بضوء الشمس.

في الأيام الدافئة من فصل الخريف، تمتلئ بعض الرقع في الوادي، التي تمكنت أن تنجو من غزو الحصى والأحجار الصغيرة بمجموعة من الجراد. يمتلك الجراد نوبة جنون تجعله يقفز في جميع الاتجاهات عندما يشعر بأقل

تهديد. فعندما يشعر الجراد بـ "فاراندولا" والكلب وهما يقتربان، يصعب عليه الهروب فيتشكل في جماعات ويقرر مهاجمتهما بالقفز على أعينهما وفميهما. يستمتع كلاهما بهذه النوبة من الجنون ويفتحان فميهما للجراد ليندفع بالداخل. يمضغه الكلب سريعًا قبل أن يتخلص من الأجزاء التي لا يريد أن يأكلها، كالأجنحة والأرجل. بالنسبة إلى "فاراندولا" فيمضغه بروية قبل أن يبتلعه.

بين أوراق النباتات المختلفة التي تمكنت من النجاة في تلك المنطقة، تتخذ العديد من العناكب بيوتًا لها بين أوراق النباتات المختلفة التي تمكنت من النجاة في تلك المنطقة. تلف خيوطها البيضاء حول تلك الأوراق حتى يختفي اللون الأخضر للعشب تمامًا.

يتفحص الكلب تلك المخلوقات الدقيقة بينما يشجعه «فاراندولا»:

- هيًا! تذوقها.. تذوقها!

# 3



ينتهي المطاف بالكلب وهو ملتصق بالكوخ يومًا وراء يوم. عندما يحل الظلام، يتركه "فاراندولا» في الخارج، فيعوي الكلب لمدة من الوقت قبل أن يلتف بالغطاء الذي تركه له في الخارج وينام. أحيانًا في الليل، يسمعه "فاراندولا» وهو ينبح بصوت غليظ ليخيف بعض الحيوانات، عرسة ربما أو أرنبًا، لكنه لا يترك البيت أبدًا ليطارد فريسته، فقد تعلم أن مطاردته لحيوانات تفوقه سرعةً أمر غير حكيم، حيث يمكن أن يودي بحياته وهو يجري فوق المنحدرات الصخرية، أو يتلقى ضربة من حافر أحد الحيوانات التي يطاردها. فيفضل بدلًا من ذلك أن ينتظر حتى يعطيه صاحبه بعض بواقي طعامه.

***

إنه كلب مطيع، أو ربما مجرد كلب عجوز فقد حماسه وأحلامه كما فقد شبابه وقوته. في بعض الأحيان، يحب "فاراندولا» أن يكافئه فيدخله الكوخ ويبدأ الكلب في تشمم كل شيء حوله باهتمام وشغف. فقد العجوز حاسة الشم لديه منذ مدة كبيرة مضت، وعندما توقف عن الاستحمام، لم يعد ينتبه لرائحته، فالريح الذي يطلقه تحت بطانيته ليلًا لا يزعجه أبدًا، بل إنه محبب إليه كأنه عناق دافئ، كما أنه يحرص على اتباع نظام غذائي مناسب لتشجيعه. يندهش العجوز عندما يرى الكلب يتشمم كل شيء حوله، فلم يخطر بباله قَطُّ وجود كل تلك الروائح المختلفة داخل المنزل. يتشممه الكلب هو أيضًا. يعير حذاءه وقدميه اهتمامًا خاصًا كأنه ممتن لـ«فاراندولا"

ورائحته التي توفر له حتى لو القليل من الطعام.

في يوم ما، يضبط "فاراندولا" نفسه وهو يتكلم إلى الكلب، يخبره أن يفعل هذا وذاك، يخبره بأشياء عديدة، ويسأله إن كان قد رأى شيئًا ما بالكوخ لا يمكنه الحصول عليه في الوقت الراهن. يخبره بشأن الثلج الذي سيتجمع بالخارج ويتكتل طوال فترة الشتاء ولن يتمكنا من رؤية أي شيء حولهما؛ إذ سيكون كل شيء عبارة عن ثلوج. وسيكونان بالداخل طوال الوقت مهددَين بخطر وقوع السقف الذي يمكن أن ينهار في أي لحظة بسبب تراكم الثلج فوقه. يخبر الكلب بكل تلك الأشياء ليرى كيف سيتصرف وإذا كان سيخاف أم لا. ترتفع أذنا الكلب ويتدلى لسانه الأحمر وتلمع عيناه وهو يستمع إلى صاحبه، كان سيهز ذيله لو كان لديه ذيل. يعرض عليه "فاراندولا" قضمة من طعامه ويسأله: "جيد. أليس كذلك؟"، أو يقول له: «الخبز الذي جلبته العام الماضي كان أفضل".

يهز الكلب رأسه ويأخذ نفسًا عميقًا كما لو أنه على وشك أن يرد عليه، يخبره "فاراندولا":

- الخبز الذي جلبته العام الماضي كان لذيذ المذاق، تأخذ قطعة وتغمسها بالنبيذ بهذا الشكل.

يريه كيف يغمس الخبز بالنبيذ ويتتبع الكلب كل حركة بانتباه.

- ثم تخرجها وتفعل هكذا.

يتناول "فاراندولا" قطعة الخبز الذي غمسها في النبيذ للتو والنبيذ يتقطر من أصابعه. تغمر فمه نكهة خفيفة وبعيدة، لو أنه لم يتوقف عن غسل أسنانه منذ سنوات، لكان سيشعر بالمذاق قويًا ويستمتع بلذعته. لكن الآن ينزلق الطعام في جوفه سريعًا دون أن يشعر بمذاقه وهو يمر بلسانه الأبيض وأسنانه القليلة المتبقية التي كوّن الجير طبقات سميكة فوقها.

يستمتع «فاراندولا» بمذاق الخبز وينظر في أعين الكلب الذي يجلس أمامه ويخبره:

- إممم! هذا لذيذ.. لذيذ!

يتدلى لسان الكلب ويتقطر منه اللعاب كأنه صنبور تقطر منه المياه حتى يكون اللعاب بركة صغيرة أسفله.

يتناول «فاراندولا» القطعة الثانية من الخبز المنقوع بالنبيذ، ويبدأ الكلب في تحريك فمه كأنه يتناول الطعام.

يسأل الكلب أخيرًا:

- هل يمكن أن أتذوقه؟

يتناول العجوز ثالث قطعة ويخبره:

- لا.

- قطعة صغيرة، أرجوك، قضمة صغيرة.

- لا.

- فقط لأعرف مذاقها وإلا كيف سأتأكد أنك تقول الحقيقة؟

- يمكنك أن تثق بي.

- أفضل أن أجرب بنفسي.

يلتهم العجوز القضمة الثالثة ويشعر بالشبع. يعرف «فاراندولا» كيف يوقف نفسه عن تناول كمية كبيرة من الطعام، وألا يملأ معدته إلا بالقليل في هذه الأيام. فقد علمته رحلته الطويلة إلى القرية أن يرضى بالقليل جدًا، وبمرور الوقت، تحولت تقلصاته المعدية إلى صوت داخلي يألفه ويتكلم معه في بعض الأحيان.

لكن، هناك كلب يتكلم معه الآن.

يتابع الكلب كلامه بسرعة:

- ماذا كنا نقول؟

ليغلق «فاراندولا» فم الكلب، يلقي له قطعة من الخبز فيقفز الكلب بعد أن

يطلق تنهيدة تنم عن الراحة ويلتهمها، ثم ينظر بعد ذلك إلى العجوز كأن شيئًا لم يكن ويسأله:

- أهناك شيء آخر لي؟

- لقد تناولت عشاءك للتو!

- قطعة من الخبز الجاف! أتريدني أن أموت أمامك؟ لا يمكنني تناول طعام مثل هذا، أريد طعامًا حقيقيًا، قطعة كهذه غير كافية على الإطلاق!

- لن تتذوق النبيذ الخاص بي.

- دعك من هذا، كنت أفكر في قضمة من النقانق.

- هل كنت تفكر بذلك؟

- الكلاب تأكل اللحم! نحن لسنا دجاجًا، لا أقصد أي إهانة للدجاج بالتأكيد.

يفتح الكلب فمه للحظة كأنه على وشك تناول شيء ما. ربما ذكره حديثه عن الدجاج بكم يحب اللحم النيئ المقطوع للتو من فريسة ما زالت حية. كم هو جميل إحساسه وهو ينقض على فريسته ويغرز أسنانه في أحشائها وسط فوضى من الريش الممزق والأرجل التي تصارع وتريد الهرب.

ثم يسأل الكلب محاولًا أن يركز انتباهه على ما سيقوله:

- ماذا كنت أقول؟

يجيبه «فاراندولا»:

- كنت تتكلم عن النقانق.

***

تغطي مجموعة من البثور الصفراء منطقة حول أنف الكلب وفمه، وتسكن مجموعة من القراد بسعادة بين خصلات فروه الخشن، متخذة منه بيتًا لها ومعدتها مملوءة بالدم الذي تمتصه منه.

يصيح «فاراندولا» عندما يلاحظ المجموعة الهائلة من القراد:

- أنت مغطى بالقراد!

يسأل الكلب باندهاش:

- القراد؟ أين.. أين؟

يتحرك الكلب في دوائر محاولًا أن يعض ذيله غير الموجود.

- في كل مكان أيها الكلب القذر! على رأسك وخلف أذنيك وفوق فمك وعلى رقبتك ومعدتك وحوافرك وكفيك!

يفحص «فاراندولا» فرو الكلب ويدحرج أصابعه فوقه ليتحسسه ويتعجب من تلك الكمية الكبيرة من القراد.

- ابقَ هادئًا لكي أرى جيدًا.

يصدر الكلب نباحًا ليس بدافع الخوف، بل بدافع عاطفته التي يشعر بها تجاه صاحبه والطريقة التي يتحسسه بها.

- توقف عن هذا! أنا لا أداعبك.

- أنت لا تداعبني؟

- لا. أريد أن ألقي نظرة على القراد.

يضحك الكلب في سعادة ويبدأ في مطاردة ذيله غير الموجود مرة أخرى فقط ليثير أعصاب «فاراندولا».

يردف العجوز قائلًا:

- لا تصاب الحيوانات بالقراد أبدًا في تلك المنطقة من الجبل بل تُصاب به في الأسفل عند الوادي حيث المروج والعشب الطويل.

- حسنًا، لا بد أنني أصبت بها هناك. لكنني لا أشعر بوجودها ولا تضايقني أبدًا. من يعلم كم مر من الوقت وأنا مصاب بها.

- إنها تمتص دمك أيها المغفل.

- حقًا؟

- عليّ أن أحرقها لتتخلص منها.

- أنت تمزح، أليس كذلك؟

يتناول «فاراندولا» كماشة ليفتح بها الموقد ويلتقط قطعة فحم متوهجة ويحركها باتجاه الكلب.

ينبح الكلب ويجري مبتعدًا.

- إياك أن تفكر في هذا!

- سأحرق القراد، لن أحرقك! تعالَ إلى هنا.

- اغرب عن وجهي. لن أدعك تحرقني!

يبدأ كل منهما في مطاردة الآخر في الغرفة إلى أن تنطفئ قطعة الفحم وتتحول إلى اللون الأسود وتنقطع أنفاس العجوز من الجري.

يقرر العجوز أن ينتظر حتى ينام الكلب، وبعد أن يسمع صوت شخيره، يأتي بقطعة فحم أخرى من الموقد ويتحرك بخفة نحو الكلب، يمسكه بإحكام ويضع قطعة الفحم الملتهبة على رقبته. يستيقظ الكلب وهو يصرخ متألمًا، يتمكن العجوز من حرق قرادة أو اثنتين قبل أن يحرر الكلب من قبضته.

ينبح الكلب ساخطًا على ما فعله صاحبه به:

- هل جُننت؟

- سأفعل ذلك في كل مرة تغفو فيها. سيكون هذا الشتاء طويلًا وليس هناك الكثير لأفعله. سأنتظرك حتى تغفو.

ينبح الكلب:

- لا تفعل هذا مرة أخرى يا صديقي.

- أنت حر إذا أردت أن تذهب، اختر ماذا تريد أن تفعل.

ينفخ الكلب في الهواء متذمرًا ويصيح في وجه «فاراندولا» وهو يرتعش:

- إنني أحترق.

يرد «فاراندولا» بتهكم:

- إنها رائحة الفرو المحترق لا أكثر.

- لقد حرقت فروي.

- كانت القراد تتغذى على دمك.

يعطس الكلب ويعلق:

- كائنات مقرفة.

- هذه هي مشكلتكم أيها الكلاب. دائمًا ما تلصقون أنوفكم في كل شيء لتتشمموه، في الأرض والعشب، تتدحرجون فوق التراب وفضلات الحيوانات الأخرى.

- نعم هذا صحيح، أعتقد أنني...

- إذًا لقد نلت ما تستحق.

***

في المساء، يصارع الكلب ليبقى مستيقظًا، لكنه كلب عجوز وسرعان ما يغفو في النوم. هذه هي اللحظة التي كان ينتظرها «فاراندولا"، يمسك بقطعة فحم مشتعلة ويلصقها بفرو الكلب. ينتشر الصراخ والعواء والنحيب ويتكرر كل شيء ثانية.

يعلق العجوز:

- أريد أن أرى مَن منا أكثر عندًا.

أسفرت محاولات «فاراندولا» للبحث عن القراد وسط فرو الكلب الأصفر الشاحب عن عواقب وخيمة. ففي يوم ما، بينما يحك ساعده، يتفاجأ بوجود قرادة فوقه، يمعن أكثر في النظر ليجد واحدة ثانية ثم واحدة ثالثة أسفل إبطه ثم واحدة أخرى على الذراع الأخرى واثنتين فوق كاحليه.

يضحك الكلب وهو يفكر كيف سيستمتع بمشاهدة صاحبه وهو يشعل النار

بجسده ليحرق القراد ويشم رائحة الدم وهو يغلي داخل جسده.

ينظر العجوز إلى الكلب ويخبره:

- أعطيتني هدية صغيرة.

يرد الكلب ساخرًا:

- أتمنى أن تعجبك.

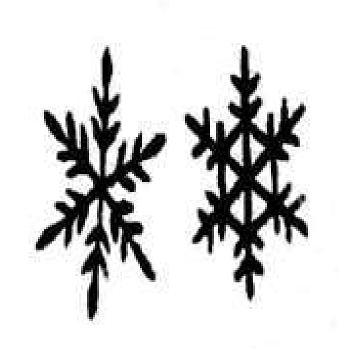
لم يستحم «فاراندولا» منذ شهور حتى أصبحت رائحته الكريهة بمثابة سحابة دافئة تحيط به. وتكونت طبقة سميكة من الاتساخ والعرق والجلد الزائد فوق بشرته البيضاء حتى غطت جسده بأكمله وحولته إلى اللون البني الأشبه بلون التراب الذي يتعرض للشمس مدة طويلة. لا يشعر العجوز بتلك الطبقة إلا عندما يوقظه الشعور بالحكة من أحد أحلام يقظته ويضطر إلى أن يحك مكانًا ما بجسده.

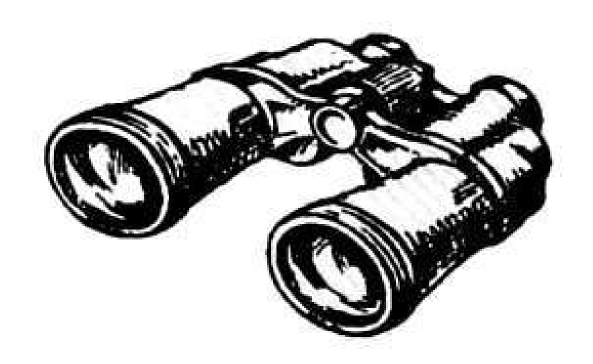
لا يهتم «فاراندولا» عندما يبتعد الناس من حوله أو يسارعون لفتح الأبواب والنوافذ عندما يوجد بمكان ما، ولا عندما يغطون أفواههم بأيديهم حتى لا يستنشقوا الهواء المعبأ برائحته النتنة. فبالنسبة إليه، الأمر أفضل على هذا الحال، فهو يرى أنه لا يمكن للمرء أن يثق بمن يتحممون يوميًا، من ينظفون شراشفهم ويبالغون في الاهتمام برائحتهم ومظهرهم طوال الوقت. فهؤلاء يريدون دائمًا أن يظهروا بمظهر لائق، ويدعون أنه لا تصدر منهم أي روائح كريهة أبدًا. يرى «فاراندولا» أن هؤلاء يصابون بالمرض سريعًا ولأبسط الأسباب. فهم يمرضون في أي وقت لا ينتبهون فيه لصحتهم، ربما عندما تتسلل رياح خفيفة من النافذة أو إذا عطس شخص ما بوجههم. يرى أيضًا أنهم يموتون بدون سبب واضح وتكون نزعتهم للاهتمام الزائد بنظافتهم ورائحتهم هي السبب.

لم يغير العجوز ملابسه ولم يغسل أسنانه بالفرشاة منذ سنوات، فعلى المرء أن يهتم بأسنانه ولا يضعفها بالفرشاة. يرى أيضًا أن الاهتمام المبالغ فيه بالمنطقة أسفل بطنه أمر غير محبذ على الإطلاق، لذلك توقف عن تنظيف

نفسه بعد قضاء حاجته. نما شعر أسفل إبطيه وصدره بغزارة، مما سمح للعرق بأن يتجمع ويأخذ من تلك المنطقة ملجأ له. أما قدماه، واللتان يغطيها الآن بثلاث طبقات من الشرابات الصوف الطويلة، فتلتويان وتغليان داخل حذائه حتى انكسرت أظافره السوداء من تلقاء نفسها. لسنوات، لم يهتم «فاراندولا» ببشرته أو شعره وتكونت طبقة من الجلد المتقشر بين شعر رأسه المتناثر وشعر لحيته وحاجبيه.

بالنسبة إليه، تلك هي الطريقة المثلى لمواجهة الشتاء وعليه أن يحمي تلك الطبقة التي تحيط بجسده وتحميه وترافقه دومًا من ذلك الطقس القاسي، وخاصة من الأمطار التي تهدد بتنظيف وتعريض جسده للمرض. عليه أن يحمي جسده من لعق الكلب المستمر أيضًا.





يشعر "أديلمو فاراندولا" منذ مدة أن هناك من يراقبه، وعندما قرر أن يمعن النظر ليتأكد، وجد رجلا في زي رسمي يحمل منظارًا ويوجهه مباشرة نحو الكوخ. عندما تأكد من أن حارس الغابة ذاك يراقبه، قرر أن يخرج منظاره الذي يحتفظ به ليراقب هو ذلك الرجل أيضًا. ها هو الحارس يقف هناك بمفرده ويحمل بندقيته فوق ظهره، يقف بدون حراك ومنظاره مثبت في اتجاه الكوخ. كان قد بدأ بالتجول حول الأراضي الخضراء بالقرب من الكوخ منذ نهاية الصيف الماضي قبل أن يتساقط الثلج ويبدأ في تغطية كل شيء. لكن بعد سقوط الثلج، تسلق إلى أعلى قمة استطاع أن يصل إليها ليحظى برؤية أفضل، ومكث هناك في البقعة التي تحدد نهاية الجزء المنخفض من الوادي.



لكن «فاراندولا» يشعر أنه مراقب منذ مدة أبعد من تلك، كان لديه هذا الشعور عندما كان يمكث في كوخه الصيفي الذي يقع وسط تجمعات الحصى والصخور الهائلة بالمنطقة الأعلى من الجبل. لذلك قرر العجوز أن يتسلق الجبل إلى فم الجدول المائي القريب من كوخه الصيفي ويبقى هناك ليراقب الحارس وينتظره لكي يأتي إليه. بإمكانه أن يلقي ببعض الحجارة عليه من مكانه المرتفع هذا، بإمكانه أن يتسبب في انهيار بعض الصخور لتقع عليه ويُدفن تحتها هكذا بكل بساطة. لن يكون ذلك صعبًا على الإطلاق، فدائمًا ما تتحرك وتسقط الصخور من تلك المنطقة العالية. إذا وضع المرء قدمه في مكان غير ثابت، سيجد نفسه قد انزلق إلى أسفل الوادي وسيجد

نفسه أسفل نصف الجبل. مع ذلك، يتردد «فاراندولا»، فهو يعلم جيدًا أن إيذاءه لرجل يرتدي زيًا رسميًا سيسبب له المتاعب بالتأكيد.

في بعض الأحيان، يتحلى الحارس بالجرأة ويقرر أن يقترب قليلًا كأنه لا يعبأ بإخفاء نفسه. يتظاهر بأنه كان في المنطقة حول الكوخ الشتوي أو الكوخ الصيفي، ويبدأ بالنظر حوله كأن عقله مشغول بأشياء أخرى مثل الحيوانات التي تقفز من صخرة إلى أخرى في هلع جراء اقترابه منها، أو النسور التي تحلق فوقه، أو مستعمرات حيوانات المرموط التي تشغل المنطقة الأعلى من الجبل. لكن العجوز يعلم أن الحارس يراقبه بطرف عينه.

ليس لدى «فاراندولا»، ذلك العجوز الذي يتحدث مع نفسه ويمكث بمفرده، شيء ليخافه، فالمراعي والوادي بأكمله ملك له ويمكنه فعل ما يحلو له به. كل شيء ملكه؛ الحيوانات والصخور والعشب والجداول والثلج. إذا قرر في وقت ما أن يطلق النار على أحد الظباء من أجل عشائه، فليس عليه أن يبرر تصرفه هذا لأي شخص. فجميع الظباء في ذلك الوادي ملك له ومن حقه أن ينعم بلحمها وجلدها وعظامها وقرونها لأنه يمتلك الوادي بأكمله. كان قد اشترى «فاراندولا» هذا الوادي والأرض المحيطة به بالمال الذي كسبه هو وأخوه جراء بيع الوادي الآخر الذي يُشيد فيه المتعهدون من المدينة المصانع والفنادق الآن. لا يهتم «فاراندولا» بذلك الوادي الأكثر جمالًا من ذلك الذي يمكث فيه، فهو خالٍ من الحيوانات أو ساكني الجبال، ويعج بالأصوات الصاخبة والأضواء وأصوات المحركات والموسيقى وتعلوه سحب عديدة من الدخان.

لكن هنا في ذلك الوادي الوعر القبيح شديد الانحدار والممتلئ بالحصى والأحجار، هو المسؤول عن كل شيء. في ذلك الوادي الذي لا يؤدي إلى أي مكان وتشوهه السيول الهائلة في فصلي الربيع والخريف، لا يحتاج "فاراندولا" إلى أي شيء ولا يطمع في أكثر مما لديه، لذلك يمكن لذلك الحارس الفضولي أن يذهب إلى الجحيم.

***

في أحد الأيام، يقترب الحارس ويلقي عليه التحية:

- صباح الخير!

يجفل «فاراندولا» ولكنه يتظاهر بأنه لم يسمع شيئًا. على النقيض، يتفاجأ الكلب وينبح ويحتمي خلف ساقي صاحبه ويصدر زمجرة.

يكرر الحارس التحية وهو يقف أقرب مما كان عليه:

- صباح الخير! يوم بديع، أليس كذلك؟

يصدر «فاراندولا» نخيرًا لا أكثر.

- من اللطيف مقابلتك مرة أخرى، كيف حالك؟

يصدر «فاراندولا» الصوت نفسه ثانية ويهز كتفيه ويتساءل: "لماذا يقول «مرة ثانية» بينما تلك هي المرة الأولى التي نتحدث فيها؟".

يتحدث الحارس ثانية ويقترب ليداعب الكلب:

- يا له من كلب جميل.. أتفهم لماذا اخترت أن تعيش هنا. أنا أيضًا أحب البراري.. تلك المناطق التي لا يحبها أحد ويتركونها خالية على خرائط السياح، مثل هذا الوادي. إنه بديع! انظر كيف يعج بالحياة!

يلوح الحارس بيده حوله مشيرًا إلى الطبيعة الخلابة التي يقفون وسطها. تعج الأراضي حولهم بالصخور والأحجار التي تقفز فوقها أشكال مختلفة من الحيوانات سريعة الاهتياج منها المفترس ومنها الفريسة، ومنها الطيور القلقة التي تخاف من كل شيء، وخصوصًا الثدييات الهزيلة المغطاة بالطين التي لا تستطيع تمييزها.

يكمل الحارس حديثه:

- يا له من منظر بديع! الحياة متجددة دائمًا هنا، يسمونها معجزة الحياة. أتعلم أنني أحسدك؟ بالتأكيد أنت تعلم، كم مرة خضنا هذه المحادثة؟

لا يتذكر العجوز أي شيء عن تلك المحادثة، فيقرر الاكتفاء بالصمت وألا يغادر حتى لا يتبعه الحارس. فأكثر ما يخشاه هو أن يأتي الحارس إلى الكوخ

ويتطفل عليه، ويتفحص الإسطبل الخاص به وأن يرى لحم الظباء التي اصطادها «فاراندولا" وعلقها كي تجف وجلدها أيضًا الذي ينوي أن يبيعه في الصيف أو يجد شخصًا ليبيعه له.

- يا لها من حياة! أحب هذه الوظيفة، تشعرني بأنني وسط خلق الرب. تجعلني أشعر أنني مفيد. هل تفهمني؟ أو على الأقل ليس عديم الفائدة كليًا. فأنا أحرص على أن تعيش تلك المخلوقات، على ألا يطاردها أحد أو يقتلها. أنت تفهمني، أليس كذلك؟ دائمًا ما يسألني زملائي: «لماذا تتسلق كل تلك المسافة إلى أعلى؟ ماذا تعتقد أنك ستجد؟ هناك فقط ذلك العجوز، لن تجد شيئًا آخر ولا حتى فأرًا". لكنني أعلم أن الأمر ليس كذلك. دائمًا ما تلقى المروج الخضراء الجميلة الحماية، ولكن الأودية غير الجذابة، مثل هذا الوادي، هي ما تستحق الحماية لأنها تخفي الكنوز الحقيقية.

يهز «فاراندولا» رأسه موافقًا ليظهر للحارس أنه كان يصغي إلى حديثه وتبدو على وجهه أمارات الإرهاق.

- أرى أنك توافقني الرأي يا صديقي.

***

بحلول الليل، أصبحت ذكريات «فاراندولا» عن تلك المقابلة مبهمة وغير واضحة. لكن بمجرد دخوله الإسطبل، يشعر أن عليه أن يخفي اللحم والجلد اللذين علقهما ليجفا. عليه أيضًا أن يخفي العظم الذي نزع عنه اللحم وكان قد قرر أن يبيعه. يغطي الجلد بالقش ويلف اللحم بصفحات من المجلات القديمة الذي يستخدمها ليشعل الموقد أو ليمسح بها أسفل ظهره أحيانًا ثم يدفنها تحت تربة الإسطبل ويخبئ معها العظم. بداخله صوت يحذره: "عليك أن تبقى متيقظًا. عليك أن تنتظر وقتًا أفضل".

يتبعه الكلب في صمت وتظهر تعابير وجهه أنه يفكر في الحارس وربما يشعر بالذنب أيضًا لكن لأسبابه الخاصة.

***

في اليوم التالي، يظهر الحارس مرة أخرى.

يلقي الحارس التحية على «فاراندولا» من مسافة بعيدة:

- صباح الخير.

يردد التحية مرة أخرى من مسافة أقرب:

- صباح الخير.

ثم يكرر التحية مرة ثالثة وهو يقف على مسافة قدم من «فاراندولا» والكلب، يمد يده ليصافحه لكن يكتفي العجوز بالنظر إلى يده.

- صباح الخير لكما.

يذهب الكلب مرة أخرى ليختبئ خلف ساقي صديقه وينتظر هناك حتى يغادر الرجل.

- كيف حالك اليوم؟

يصدر العجوز نخيرًا كالمعتاد.

- يوم بديع، أليس كذلك؟

يردد الحارس كلامه مرة أخرى. يمكن لأي شخص أن يرى أنه يتصرف بغرابة، فمن المؤكد أن هناك سببًا وراء بقائه في مكانه ذاك طوال الوقت مختبئًا.

تمر لحظات صمت طويلة تشعر العجوز بالانزعاج فيفكر كم هذا غريب. كان يظن أنه تعود الصمت وأن بإمكانه أن يتحمله لشهور دون أن يمل. كان يظن أن بإمكانه أن يتحمله حتى لسنوات، لكن الصمت الذي يسوده الآن غير محتمل، فيقرر أن يسأله أخيرًا:

- ماذا تريد؟

- كنت بالجوار، هناك العديد من البقاع الجميلة بالقرب من هنا كما كنت أقول لك بالأمس.

- بالأمس؟

- نعم، بالأمس، العديد من البقاع المليئة بالحيوانات.

- مخلوقات بغيضة.

ثم يلتفت إلى الكلب الذي ينظر إليه في حيرة:

- لا أقصدك.

- ما البغيض بشأنها؟

لا يريد «فاراندولا» أن يتكلم حتى لا يفصح عما بداخله أو ينسى ويخبره عن طريق الخطأ أن بعض تلك المخلوقات مدفونة بالإسطبل تحت القش وتربة الإسطبل، فيقرر التزام الصمت.

يسأله الحارس:

- هل لديك بندقية؟

يفكر «فاراندولا» جيدًا: "بندقية؟ ماذا يجب أن أقول له؟".

- لا.

- حقًّا؟

- لا.

- ظننت أن لديك واحدة.

- لا.

يأخذ العجوز خطوة إلى الوراء.

يضيف الحارس:

- انتظر.. انتظر.

ثم يحاول أن يصحح موقفه ضاحكًا:

- أنا لا أستجوبك، أسألك فقط بداعي الفضول. انظر، في رأيي يجب أن

يقتني كل شخص بندقية، خاصة إذا كان يعيش في منطقة مثل هذه. المكان هنا خطر للغاية، وأي شخص يعيش بمفرده مثلك عليه أن يقتني بندقية إن لم يكن لديه واحدة بالطبع. ألا تظن ذلك؟

يحدق «فاراندولا» إلى الأرض قليلًا ثم يقول أخيرًا:

- حسنًا.

- ماذا لو ظهرت بعض الذئاب، أنت تعلم كم هي خطرة. ماذا لو هاجمك خنزير بري؟

- لا توجد أي خنازير برية هنا في تلك المنطقة المرتفعة.

- هذا صحيح، ولكن ماذا عن الذئاب؟

- لم أرَ ذئبًا هنا قطُّ.

- ولا أنا لأكون صريحًا. لكن افترض أن حيوانًا مفترسًا هاجمك، ماذا ستفعل؟ هل سترميه بالحجارة؟

يصمت «فاراندولا». عادة ما يرمي المتطفلين بالحجارة ليخيفهم. أحيانًا يرمي الحجارة على نحو أعمى وأحيانًا يركز جيدًا على هدفه ليصيبه ويسبب له الألم.

- لا ألقي الحجارة أبدًا.

- لكنك ألقيت ببعض الحجارة عليّ من قبل.

ثم يضيف ضاحكًا:

- أظن أنك لم تكن تعرف من أكون. أعني لم تكن تعرف أنني مسؤول حكومي.

يجبر «فاراندولا" نفسه على الاعتذار:

- آسف.

- لا أرجوك لا تتأسف. لم أكن قد عرّفت نفسي إليك بعد. ولكن كيف كان

بإمكاني ذلك وأنت تبقيني دائمًا على مسافة منك بسبب كل تلك الأحجار التي تلقيها عليّ؟ إذًا هل لديك بندقية أم لا؟

يتردد «فاراندولا» ثم يجيب:

- حسنًا نعم! لدى كل شخص يعيش بمنطقة مثل هذه بندقية، أليس كذلك؟

- بالطبع! لديك رخصة، أليس كذلك؟ وهل جميع الأوراق قانونية؟

- بالطبع.

- جيد! من الجيد أن تكون جميع الأوراق صحيحة وقانونية.

- بالطبع.

يتنهد الحارس ببطء ويغلق عينيه ثم يبتسم إلى الكلب ويسأل:

- هل يمكنني أن أرى الرخصة؟

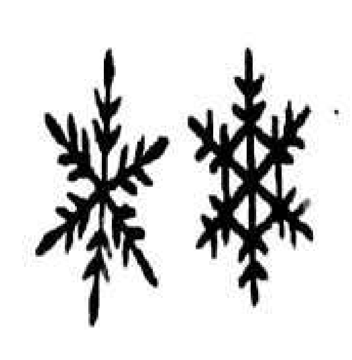
يرد «فاراندولا» من دون أن يتحرك:

- بالطبع.

يلاحظ الحارس أنه لم يتحرك فيضيف بعد برهة من الوقت:

- ربما في وقت لاحق.

ثم ينطلق بعيدًا وهو يصفر.



# 5



يبدو الكلب في أوقات وكأنه امتداد لشخصية «فاراندولا»، فهو ملتصق به طوال الوقت ولا يتوقف عن فرك جسده ويتبع بعينيه كل حركة يصدرها صاحبه إلى أن يمل فيضربه برجليه ليبعده. يئن الكلب جراء تلك الركلة ويلف في دوائر حول نفسه ليظهر مدى ألمه ثم يعود مرة أخرى إلى مكانه بجانب قدمي صديقه كأن شيئًا لم يكن. مع ذلك، في بعض الأحيان، ينطلق الكلب خارج الكوخ وهو يقتفي آثار روائح هو وحده يشمها. يخرج الكلب بخفة وهو يلصق أنفه بالأرض ليجد نفسه مرة واحدة بمفرده تمامًا. يناديه «فاراندولا»، لكن حتى تلك الصيحات لا تحرك الكلب المنشغل باقتفاء تلك الروائح أو تدفعه للرجوع. أحيانًا يتعقب تلك الروائح وهو يتلوى كالأفاعي وأحيانًا يمشي كبقية الكلاب، لكن ما يميز تصرفه هذا والمثير للدهشة هو ثقته التي يتحلى بها. يلف الكلب حول الصخور ويسلك مسارات متعددة ويشق طريقه بين الشجيرات وجذوع الأشجار معتمدًا فقط على أنفه الذي يقوده حتى يبتعد ويختفي تمامًا، يبقى على هذا الحال لساعات ولا يرجع إلى الكوخ إلا عند المغيب وأحيانًا بعد حلول الظلام. يسمعه «فاراندولا» وهو يخدش الباب لكي يدخل، لكنه لا يفتح الباب في الحال بل يبقيه لمدة بالخارج لكي يلقنه درسًا. كيف يخرج ويتركه وحيدًا هكذا؟ كيف يفضل بعض الروائح الكريهة على الجلوس بجانبه؟ يتمتم العجوز لنفسه عندما يكتشف أنه أمسى وحيدًا وأن الكلب قد غادر: «هذا مضحك». من المفترض أنه يحب العزلة، لكنه أحب ذلك الكلب وعندما يغيب بهذا الشكل، يشعر أن شيئًا ما

بداخله مات.

يصبح الوقت بطيئًا إلى أن يتوقف تمامًا، ويشعر أن الوادي حوله يتمدد ليصبح صحراء واسعة يتقلص حجمه فيها إلى حجم نملة أو دودة تائهة بتلك الصحراء. إن كان مجرد كلب قادر على أن يفعل به كل هذا، فالرب وحده يعلم ما يمكن أن يشعر به لو كان شخص ما هو من تركه وحيدًا، ما بالك لو كان هذا الشخص امرأة.

في مرة من تلك المرات التي يختفي فيها الكلب، يأتي الحارس من خلفه متعجبًا قائلًا:

- أنت بمفردك اليوم؟

يقفز «فاراندولا» متفاجئًا.

- أعني أين ذهب الكلب الذي يرافقك دومًا؟

يرد العجوز:

- لا أعلم.. ربما بمكان ما.

ثم يضيف:

- ألا تفعل الكلاب ذلك دومًا؟

يضحك الحارس:

- بالطبع! فهو حيوان ويحتاج إلى التنزه من وقت لآخر على الرغم من...

يتوقف الحارس عن الكلام وترتسم على وجهه ابتسامة غير مفهومة.

- على الرغم من أن القانون يوصي بأن تُقيد الكلاب وتكمم.

يعترض «فاراندولا» على تلك الملاحظة ويرد مدافعًا:

- لكنه ليس كلبي، لا أعرف أي شيء عنه. ظهر أمامي منذ مدة وظل ملتصقًا بي. لا أعرف اسمه حتى.

- بالطبع بالطبع.

- أكره الكلاب.

- أتفهم ذلك، ولكنك تعلم طبيعة الكلاب. أتعلم أنني كنت أمتلك كلابًا أيضًا.

يسود الصمت. ربما ينتظر الحارس أن يسأله العجوز بدوره عن كلابه لكنه يفضل أن يبقى صامتًا.

- على أي حال، في المرة المقبلة التي تتركه لكي يتجول هكذا، ضع كمامة على فمه وإلا سأضطر إلى أن أطلق النار عليه.

- سأفعل ذلك.

لكن لسان حاله يقول: «أطلق النار عليه! أطلق النار عليه!».

- تلك هي القوانين ولا يمكنني أن أفعل شيئًا حيالها. لو كنت أتبع التعليمات لكان الكلب ميتًا الآن.

- بالطبع.

- ستتذكر، أليس كذلك؟

- أتذكر ماذا؟

- الكمامة! لديك واحدة أليس كذلك؟

- بالطبع.

يكذب «أديلمو فاراندولا»، فهو لا يمتلك أي كمامات ولم يكن لديه أي منها قَطُّ. كيف يمكن أن تضع كمامة على فم كلب رعي؟ كيف سيؤدي عمله وفمه مغلق ومحبوس داخل الكمامة؟

- حسنًا هذا رائع. الآن إن لم يكن في ذلك إزعاج لك، هل يمكننا الدخول، أشعر بالعطش الشديد.

- الماء؟

- هل يمكننا الدخول؟

***

"ذلك المتطفل اللعين!"، يقولها «فاراندولا» لنفسه بعد أن يغادر الحارس أخيرًا، فهو يعلم جيدًا لماذا هو هنا. "يظن ذلك التافه أنني صائد غير قانوني، لذلك يركز معي». لكن الحقيقة أن "فاراندولا" نادرًا ما يطلق النار على الحيوانات. هو فقط يطلق النار على من يتعذب جراء مرض أو من يظهر عليه أنه تائه. أحيانًا يضطر إلى أن يطلق النار على الحيوانات التي تقترب من الكوخ لتأكل من العشب الذي أمامه، أو الحيوانات التي تتسلق الصخور المحيطة بالكوخ والتي تنجذب لرائحة التبن الذي يكومه "فاراندولا" بالساحة الأمامية. ينتظرها حتى يتشتت انتباهها وتصبح على وشك التهام التبن ثم يطلق النار عليها.

يسأل العجوز الكلب الذي ظهر أخيرًا:

- ما الخطأ بهذا؟ سوف يموتون على أي حال. أنت نفسك رأيتهم، رأيت كم هم ضعفاء، منهم من يعرج ومن يئن. أنا أسديهم خدمة بإطلاق النار عليهم.

يضيف الكلب:

- ثم إن كل شخص سيموت بالنهاية عاجلًا أم آجلًا، أليس كذلك؟ كنت تقول هذا بالأمس. هل يمكننا أن نتحدث عن شيء آخر الآن؟

يفضل الكلب ألا يتحدث عن هذا الموضوع، ففي آخر مرة، لمَّح «فاراندولا» أنه لما كان سيفكر مرتين قبل قتل الكلب وطهيه لو لم يكن هناك أي حيوانات أخرى.

يضيف العجوز ما كان يتوقعه الكلب وهو يقهقه قليلًا:

- بالإضافة إلى ذلك، ماذا سأفعل إن لم أقتل تلك الحيوانات؟ سأضطر حينها إلى أن آكلك.

- حسنًا هذا ليس مضحكًا أبدًا، ولم يكن مضحكًا عندما قلته أول مرة.

- حسنًا أنت محق. هذا ليس مضحكًا.

- شكرًا.

لا يمتلك «فاراندولا» رخصة للبندقية الخاصة به ولا يتبع التعليمات، فالوادي والحيوانات والهواء كل شيء ملكه، هو وأخوه بالطبع. اشترى «فاراندولا» هو وأخوه هذا الوادي بثمن بخس للغاية ولطالما عدّ أخوه أن شراءه لهذا الوادي كان مضيعة للمال. يعيش أخوه بعيدًا ولن تطأ قدماه أبدًا هذا الوادي الوعر الممتلئ بالحجارة؛ فدائمًا ما يرى نفسه أعلى شأنًا من الآخرين. يشعل العجوز الموقد وهو يذكر نفسه أن كل شيء هنا بهذا الوادي ملك له. كل شيء. كل شيء.

بما أن الحارس يُصر على معاملته كحيوان مفترس يراقبه من بعيد بمنظاره، يقرر «فاراندولا» أن يعتمد نهجًا جديدًا في تحركاته وهو أن يمشي على أربع كي لا يراه الحارس. يبدأ في تنفيذ خطته فيسلك مسارات غريبة وملتوية بين الصخور والشجيرات وهو يمشي على أربع ويمكث هناك مختبئًا لكي يتجسس على الحارس.

يتبعه الكلب وعلى وجهه نظرة ماكرة وهو يتمتم:

- هذا مُسلٍ جدًا.

- اسكت! إياك أن تصدر صوتًا.

- هل يمكنني أن أنبح؟

- لا.

- ما نفعله ممتع، أيمكنني أن أصدر نباحًا بسيطًا؟

- لا.

يتجول الحارس بالقرب منهما ويبدو على وجهه أنه مشغول البال، يقترب من مكانهما وينظر حوله.

يعلق «فاراندولا» بحدة:

- متطفل لعين.

ينبح الكلب ويعلق:

- نعم، متطفل، هذا صحيح. ماذا نفعل؟ هل نتسلل من ورائه ونهاجمه؟

- لا.

- سيكون ذلك ممتعًا جدًا. سنفاجئه وسيفزع. هيًا لا أطيق الانتظار.

يكفهر وجه «فاراندولا» ويبقى صامتًا.

# 6



لا يمل الحارس أبدًا، فها هو بعد بضعة أيام يقف وسط العشب كخيال المآتة ليراقب «فاراندولا». يبدو الوادي أكثر صمتًا وظلمة وفراغًا من أي وقت مضى، وتمتلئ السماء بالعديد من السحب، مستعدة لتقذف بمياهها في أي لحظة وتملأ الوادي بالسيول. يخرج العجوز من كوخه ويتسلل عبر العشب ويختبئ خلف أحد الصخور هائلة الحجم التي نقلها الثلج من مكان آخر إلى هنا منذ ملايين السنين.

يقترب الحارس من مكانهما وهو يمشي بثقة وخطوات مسرعة هذه المرة. يجثو «فاراندولا» على ركبتيه، يكتم أنفاسه ويبقى صامتًا ومن خلفه يلصق الكلب جسده بالأرض، ويتدلى لسانه وتشع عيناه بالحماس وهو يفكر بذكريات الصيد القديمة الخاصة به.

يظهر الحارس فجأة ويلقي التحية عليهما:

- صباح الخير!

يفجر الكلب نوبة من النباح.

يرد العجوز:

- ولك أيضًا.

- كيف الحال؟

يصدر «فاراندولا» نخيرًا كالمعتاد.

- يبدو كأنها ستمطر ثلجًا اليوم، أليس كذلك؟

- مممم.

- لمَ لا تقف؟ أجد صعوبة في التحدث إليك وأنت جالس هكذا.

اعتدل الكلب عندما رأى الحارس، والآن هو في انتظار أن يداعبه بينما يصارع العجوز لكي يقف على قدميه.

- هكذا أستطيع أن أنظر في عينيك وأنا أكلمك، أحب أن أنظر إلى عيني من أتحدث إليه، ألا تحب ذلك؟

- لا أحب الناس.

يضحك الحارس قائلًا:

- أستطيع أن أرى ذلك بوضوح. أنت محق، لكن اسمعني، أريد أن...

- لا أمتلك بندقية! كف عن مضايقتي!



- لم آتِ إلى هنا من أجل التحدث عن ذلك، لا أهتم إن كانت لديك واحدة. أردت التحدث عن شيء آخر. اسمعني، بما أن الشتاء يقترب، لمَ لا تذهب لتعيش مع أحد أصدقائك أو أقاربك؟ فالعيش وحيدًا هنا صعب، ألا ترى أن هذا تصرف حكيم؟

- ليس لديَّ أقارب.

- ماذا عن أخيك؟

يندهش «فاراندولا» من السؤال ويفكر: "كيف عرف بشأن أخي؟ من أخبره بذلك؟"، فيكذب قائلًا:

- إنه ميت.

- آسف، لم أكن أعلم ذلك.

- لا عليك.

- متى حدث ذلك؟

- من سنوات مضت.

- آسف لخسارتك.

- لا أهتم بالأمر.

يتوقف الحارس للحظة مفكرًا فيما سوف يقوله ثم يستطرد قائلًا:

- هل أنت حقًّا بخير؟ آسف إن كنت أزعجك بسؤالي هذا لكن...

يلوح «فاراندولا» بيده بطريقة غامضة كأنه يريد أن يقول إن ليس هناك ما يهتم به أو يقلقه أبدًا.

- لكنني أشعر أنك لست بخير.. أتكلم عن صحتك. الجو شديد البرودة هنا، لكنني لا أتكلم عن الطقس، أتكلم عن العزلة فأنت وحيد هنا.

يرد العجوز:

- لكنني لست وحيدًا.

ينظر العجوز إلى الكلب الذي يقف بجانبه فيبادله الكلب بنظرة مليئة بالامتنان.

- يمكن للحيوانات أن تكون رفقة جيدة، لكنك بحاجة إلى البشر وإلا سينتهي الأمر بك وأنت تتصرف مثل الحيوانات التي تعيش وسطها. أنت بحاجة إلى الناس، صديق أو أحد الأقارب، أو ربما امرأة.

يضحك العجوز مستنكرًا.

- انسَ ما قلته بشأن النساء فأنت محق. ألديك أحد الأقارب ما زال على قيد الحياة؟ أحد أنسبائك، حتى لو تربطكما صلة بعيدة؟

يتظاهر «فاراندولا» أنه يكبت تثاؤبًا ولا يرد على أسئلة الحارس أملًا في أن يقلع عن الكلام.

لكن الحارس يصر على إنهاء ما جاء للتكلم عنه:

- أنا قلق عليك. أتكلم بجدية. لا أريدك أن تمكث هنا وحيدًا خلال هذا

الشتاء أيضًا.

- لديّ كل ما أحتاج إليه.

- هذا ليس ما أعنيه.

***

عندما حل الشتاء، لاحظ «فاراندولا» أنه منذ مدة قد سمح للكلب أن يمكث معه داخل الكوخ حتى عندما يجيء الظلام. يشاهده وهو يلتف حول نفسه أسفل سريره ويتنهد، لقد أصبح كلبًا أليفًا. ليس لدى العجوز أدنى فكرة كم مر من الوقت وبصحبته هذا الكلب. لا يعلم متى توقف عن ركله والاستمتاع برؤيته وهو يقفز فجأة. اعتاد أن يقول لنفسه: "هيًا! عاقبه! حتى إن لم تعرف لماذا فهو سيعرف بالتأكيد".

لكن الآن، بعدما حل الشتاء ونصب الثلج جدارًا أبيض حول الكوخ بأكمله، فقد العجوز رغبته في تأديب الكلب وأصبح يفضّل بقاءه بجانبه. في بعض الأحيان، يحمل العجوز الكلب الممتلئ ذا الشعر المتلبد ليجلسه بجانبه ثم يقلده فينام بجانبه فوق بطنه، يبتهج الكلب جراء تلك البادرة، ويحاول أن يلعق صديقه ليعبر عن امتنانه، لكن اللعاب يشعر العجوز بالبرد فيلف وجهه بعيدًا عن الكلب.

يبدأ الكلب في الحديث وهو يتأمل ذكرياته القديمة:

- تُرى كم من الوقت مضى على أيام الرعي تلك؟ عندما أفكر في تلك المدة، لا أتذكر الملل ولا البرودة ولا الركل الذي كنت أتعرض له، مع أنه يجب أن تأخذ كل ذلك في الحسبان. أعني إن كنت كلبًا، فتلك الأشياء تعدو جزءًا أساسيًا من حياتك. لكن لا. ما أفتقده هو العمل. ذلك الشعور الجميل الذي يتملكك في المساء بعد أن تكون أتممت جميع مهامك بحرفية. هل تفهم ما أعنيه؟ مجرد الاستمتاع بالعمل. لم يكن صاحب المزرعة يمر علينا لكي يهنئنا على المجهود الذي بذلناه بالتأكيد، لكن مكافأتنا الحقيقية كانت في ألا نتلقى تلك الركلة التي اعتدناها في نهاية كل يوم. كانت تلك المكافأة أفضل من أي

شيء. هذا ما أتكلم عنه، ذلك الشعور الغامر بالسعادة الذي يأتيك عندما تعلم أنك أتممت عملك ببراعة.

يتوقف الكلب ليلتقط أنفاسه.

- ما أفتقده أيضًا هو الاستمتاع بكوني مُطَاعًا دائمًا، لا أعلم إن كنت تشعر بتلك السعادة أحيانًا، لم أفكر بذلك من قبل. كنت مُطَاعًا من الماعز والبقر، فهي لا تعرف سوى الامتثال للأوامر التي تتلقاها، لكن حتى هذا لا تجيده. تحاول أن تجمعها في مكان واحد فتجدها تتفرق في جميع الاتجاهات، ترشدها إلى اتجاه محدد فتجدها أصيبت بالذعر فجأة. إن تركتها بمفردها قليلًا، تأكل كل شيء، وبعد أن تلتهم كل ما تستطيع أكله من حولها، لا يدفعها ذلك حتى إلى الحراك فتبقى بمكانها في الوحل، محاطة بفضلاتها ولا تفهم شيئًا. لطالما كانت محاولة جعلها تنتظم في صف واحد مرهقة كثيرًا، ومع ذلك، كانت طريفة في بعض الأحيان. في النهاية أحببتها، تلك الماشية الحمقاء العنيدة. كانت تعتقد أنني أكرهها وتركتها تعتقد ذلك. لم أكن لأهتم بهذا. ففي المساء، كنت أعلم أنني بليت بلاءً حسنًا، وكنت أشعر بالإرهاق من كثرة الركض والنباح فأخلد إلى النوم سعيدًا.

في غضون ذلك، كان قد غفا العجوز. يتنهد الكلب عندما يلاحظه، لكنه لا يبدو محبطًا.

في أحيان أخرى، يشجع الملل الكلب على مشاركة أسرار ذات طبيعة مختلفة تمامًا.

يبدأ الكلب حديثه:

- آه الفتيات! هل تتذكرهن يا صديقي؟ أتساءل كيف وصلنا إلى تلك المرحلة! أن تجعلنا رائحة واحدة منهن مضطربين وعاجزين عن النوم وعلى وشك الجنون. كيف نتلذذ من تلك الرائحة المثيرة لكلبة صغيرة على الجانب الآخر من الوادي لدرجة أن تقودنا إلى الجنون! كيف لنا أن نكون هادئين تمامًا، نولي اهتمامنا فقط للأشياء المهمة كالطعام والمنطقة من الأرض

الخاصة بنا، وفي اليوم التالي، وبدون سابق إنذار، نقع في الحب بجنون وتشتعل النار في أعضائنا وتشمشم أنوفنا في كل اتجاه؟! كيف نهين أنفسنا بهذا الشكل؟! حسنًا، الأمر مختلف تمامًا بالنسبة إليكم أيها البشر. فالحب شيء جيد بالنسبة إليكم. لكن بالنسبة إلينا، فبمجرد أن يحل موسم التزاوج وتتخلل رائحة الإناث النسيم، حينها لا يهم أي شيء آخر. في نوبة جنوننا تلك، كنا نسعد بكوننا عبيدًا لتلك الرائحة، نسعد عندما نلاحقها وبعوائنا طوال الليل، حتى عندما نتعرض للضرب والركل بسبب عوائنا هذا. فلا شيء أكثر أهمية وجمالًا، ولا شيء نرغبه أكثر من ذلك. فكل ما نشتهيه في ذلك الوقت هو الزحف وراء مؤخرات الإناث ولعابنا يسيل من أفواهنا، وأن نواجه منافسينا ونتغلب عليهم لنصبح عبيدًا لأولئك الإناث بعد ذلك. أما الكلاب التي عُقمت، فهي لا تمانع اكتساب الوزن من كثرة الجلوس بجانب أصحابها، مُمددة تحت أرجلهم كبساط كبير، ذلك أفضل لها. نحن نشبهها في معظم العام، ولكن عندما يجيء الحب ويهزنا ويشعل النار في أعضائنا، نبدو كأننا فصيلة أخرى مختلفة تمامًا.

يتوقف الكلب عن الكلام ليشرب من إناء الماء الممزوج باللعاب ويعطي فمه استراحة.

- بالنسبة إلى باقي العام، الأمر مختلف تمامًا، فكل ما نفكر فيه هو طعامنا وفضلاتنا كما الرجال الأفاضل.

يفترش الكوخ بالشفق القطبي، وبعد أن غطى الثلج الكوخ وحجبه تمامًا، أصبح من المستحيل المغادرة.

عادة ما يسأل الكلب، الذي يختفي وجهه الآن خلف لسانه العريض، بين كل مرة يتثاءب فيها والأخرى:

- ما رأيك في تناول وجبة خفيفة؟

- لقد أكلت للتو.

- حقًا؟ لا أتذكر ذلك.

- أنا أتذكر، أكلت منذ وقت قليل.

- حسنًا.

يلتف الكلب حول نفسه ويتظاهر بالتفكير في شيء آخر، بينما يلعق قدميه وهو يصدر ضجيجًا ثم يستكمل المحادثة مرة أخرى.

- ألم يحن الوقت لتناول شيء؟ ما رأيك؟

- أغلق فمك.

تعلم «فاراندولا" أن يعتمد في معيشته على القليل، فهو يأكل فقط عندما يضرب الجوع أحشاءه بعنف. على النقيض، لم يكن الكلب يأخذ كفايته قَطُّ.

- نعم، حسنًا، أعتقد أن ذلك صحيح.

يرد العجوز بفظاظة:

- أنت سمين جدًا.

- لست سمينًا، إنه فقط الفراء الذي يجعلني ضخمًا.

- أنت سمين ومنتفخ.

في بادئ الأمر، ينكر الكلب ذلك، لكنه يستسلم في النهاية.

يستيقظ «فاراندولا» من أحد أحلام يقظته المليئة بأشخاص غامضين، فيضبط الكلب وهو يخدش الباب الذي يربط الحجرة بالإسطبل.

يصرخ العجوز:

- ماذا تفعل؟

- لا شيء، لا شيء. كنت أريد فقط تمضية الوقت.

- إذا ضبطتك تسرق سأضربك حتى الموت.

- هذا كثير!

- سأفعلها! سترى، أنت ميت!

يصرخ كلٌّ منهما على الآخر، كلٌّ بطريقته، إلى أن تهرب ضحكة من أحدهما، ثم من الآخر.

يعلق "فاراندولا":

- دائمًا ما تحب الشجار.

- لسبب ما، أجد أن الشجار يفتح شهيتي.

لدى «أديلمو فاراندولا» أفكاره الخاصة، أفكار كبيرة وعميقة وطويلة كطول الأيام، فهو يجد ملجأ له في أحلام يقظته تلك. الآن، على سبيل المثال، بينما يثرثر الكلب، يتذكر العجوز ذكريات الصيد في الربيع. آه، الربيع! ها هو، يزحف فوق الصخور، مصوبًا سلاحه نحو حيوانات الشامواه التي ما زالت منهكة من فصل الشتاء. ليس من الصعب إصابتها، فهي تقف هناك، مذهولة، متوقعة أن تحصل على قطعة سكر. يتلاشى حذرها المتغطرس الذي يميزها في فصل الصيف وتبدو الآن كما لو أنها حيوانات أليفة جبانة، مثل قطيع من حيوانات الرعي.

يخاطبها «فاراندولا» وهو يقترب منها ممسكًا بحزمة من العشب بيديه:

- انظري، إنه أنا، كيف حالك؟

تتردد الحيوانات وترتبك من اللطف الذي يظهره الرجل تجاهها.

يخبرها «فاراندولا» بلطف أنه سيهم بقتلها، وأنها لن تكون قادرة على الهرب لأنه سوف يطلق النار عليها على أي حال وسيكون ذلك أسوأ بكثير، لذلك من الأفضل أن تستسلم وتحصل على طلقة بالرأس.

تستمع الحيوانات بحذر.

يخاطبها «فاراندولا» بأكبر قدر ممكن من الرقة:

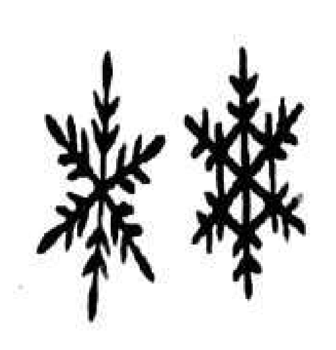
- هكذا تجري الأمور. أنا أصطادك وأنت تقعين فريستي.

يستمر في الحديث معها كالمحارب القديم الذي يتكلم مع خصمه قبل المعركة. يرفع بندقيته القديمة على غير عجالة ويحدد هدفه، بينما تنتظر

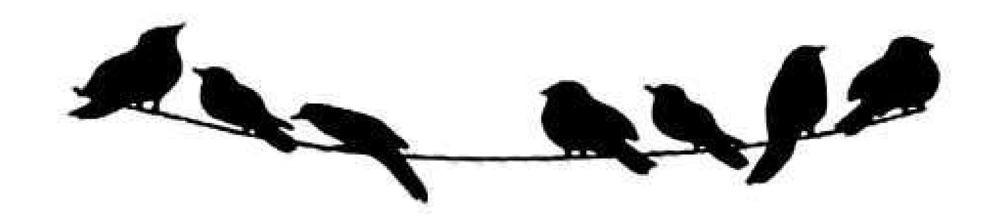
الحيوانات وأفخاذها ترتعش بعصبية. لقد وعدها بنهاية سريعة وسعيدة قدر المستطاع. جعلها تشعر بأنها جزء من خطة محكمة حيث لا يمكنها الهرب. أثبت «فاراندولا» - عبر العديد من التجارِب - أن الهروب فكرة عبثية بينما يجلب الاستسلام الآلاف من المزايا.

حان وقت القتال.

يطلق «فاراندولا" رصاصته ويسقط هدفه بينما تفر الحيوانات الأخرى في فوضى. تتعثر فوق الصخور وتنزلق نحو الوادي وهي تندفع بعيدًا. يلتفت «فاراندولا" إلى الحيوان الذي يحتضر، وبكلماته الخاصة، يخبره بألا يرتعش، بأن يستسلم وأن يتذوق اللحظات الأخيرة قبل الموت. يستمع إليه المخلوق وهو في خضم ألمه ويحاول جاهدًا أن يُبقي عينيه مفتوحتين، بينما يتدلى لسانه من جانب فمه وتتسع فتحتا أنفه. يبدو كما لو أنه يوافقه الرأي.



## 7



أحب العجوز العزلة وتعرف على ميزاتها عندما كان شابًا، بالتحديد في أثناء الفترة التي قضاها مختبئًا في الغابات وسط الصخور والمناجم المهجورة في أثناء الحرب، ولا يتذكر من تلك الفترة إلا ذكريات بعيدة ومشوشة. يتذكر مثلًا الرجال ذوي المعاطف الثقيلة والذين كانوا يقتلون من يعثرون عليهم بالغابة وهم يتفوهون بكلمات غير مفهومة. كان «فاراندولا» من أوائل من استشعروا الخطر في الوقت المناسب ورأى ضرورة الهروب والاختباء. انضم بالبداية إلى مجموعة من الهاربين مثله، لكنه سرعان ما تركهم وقرر أن يبقى بمفرده. كان يتجول وسط المزارع المهجورة والمناجم القديمة المخبأة وسط جذوع الأشجار ليبحث عن مخبأ جيد له، وكانت تمر أيام لا يأكل فيها إلا بعض التوت أو أوراق شجر عرفها وعرف أنها صالحة للأكل. كان يظن أن فترة هروبه ستكون قصيرة ثم تعود حياته بعد ذلك إلى ما كانت عليه، كان يظن أيضًا أن الأمر سيكون ممتعًا كلعبة الغميضة التي كان يلعبها وهو فتى صغير. لكن الحقيقة أنه ظل مختبئًا لشهور ولم يكن الأمر ممتعًا قطُّ.

كان يصل إليه دوي طلقات النار طوال الليل والنهار فيعلم أنهم عثروا على شخص مثله مختبئ خلف جدار أو في أحد المراعي أو في بئر ما وقتلوه. كان يسمع أن أولئك الرجال لديهم طريقة منهجية ودقيقة يستخدمونها في البحث عن الهاربين، كانوا يمشطون الجبال ويستخدمون الخرائط والمناظير وأجهزة الراديو في بحثهم. أحيانًا كان يسمع طنين أجهزة الراديو تلك فيعرف

أنهم على مقربة منه فيكتم أنفاسه ويتمنى لو يوقف دقات قلبه حتى لا يسمعوه ويعثروا عليه.

في مرة من المرات التي كان ينتقل فيها من مخبأ إلى آخر، عثر على أنفاق مهجورة لمنجم منجنيز يقع في وادٍ قاحل ممتلئ بالصخور الضخمة والشجيرات ذات الألوان الداكنة والجذور الطويلة المثنية التي لم تقوَ حتى الانهيارات الصخرية على زعزعتها من مكانها، وذلك هو الوادي الذي سيشتريه بعد عقود ليصبح ملكًا له.

كان النفق الرئيسي للمنجم القديم محفورًا في الصخور الجبلية وممتلئًا من الداخل بالصدف وحفريات لديدان قشرية، وكان يضيق عليه كأنه سيبتلعه. رأى "فاراندولا" أن منظره بديع، بديع جدًا، لكنه قرر أن يختار نفقًا آخر نظرًا لضيقه. وبالفعل اختار نفقًا آخر بالكاد أوسع من جحر أرنب، ومن المحتمل أنهم كانوا يستخدمونه لتصريف المياه أو إدخال الهواء واختاره تحديدًا لضيقه. زحف «فاراندولا» إلى آخر جزء من النفق الذي لا يمكنه أن يزحف إلى أبعد منه واستقر في ذلك المكان واتخذه الوكر الخاص به. لم يكن يشعر بتغير درجات الحرارة في مكانه هذا قطّ، وكان عزاؤه الوحيد حينها أنه لن يخطر ببال أي شخص أن أحدهم مختبئ في مكانه هذا. حتى أكثر الرجال عزيمة لن يبحثوا عن أحد بذلك النفق المظلم الضيق والذي يعج بالعفن. كما أن فتحة النفق كانت مغطاة بشجيرات العرعر المتشابكة مع العديد من النباتات الذابلة وإن انتبهوا للمنجم فسيفتشون النفق الرئيسي فقط وسيكتفون بإلقاء نظرة على باقي الأنفاق، مستخدمين كشافاتهم التي ستسمح لهم رؤية بضعة أمتار وليس النفق بأكمله ثم سيستسلمون في النهاية.

في سنوات الحرب تلك، تعلم «فاراندولا» أن يسلي نفسه بالحديث إلى ذاته وتخيل أن الحيوانات والأشياء حوله تتكلم معه.

تعلم أن يتجاهل إحساسه بالبرد والجوع وأن يوبخهما ويوجه إليهما الشتائم تارة، وينتقدهما انتقادًا لاذعًا بلغة فصيحة تارة أخرى.

كان يهمس:

- أنا لا أسمعكما ولا أشعر بكما أيها الأوغاد!

لم يقدر الجوع والبرد على التعبير عن أنفسهما، كانا يردان عليه بأصوات القرقرة والتقلصات التي تصدر من معدته المنهكة.

كان يقول لهما:

- أهذا ما تقدران عليه؟ أهذا هو كل ما تقدران على قوله؟ أنا أحب الشعور بالجوع، يشعرني بالخفة.

كان قد أصبح نحيفًا وخفيفًا بالفعل كما لو كان جسمه مخلوقًا من الورق؛ هزيل وخفيف. لكنه كان يشعر بالفخر جراء عزلته تلك كما لو أنه ناسك بالصحراء، كان يرفع صوته باستعلاء وهو يتكلم ويسمع جدران المنجم من حوله وهي تهتز وتردد صوته. لم يكن ذلك سوى تخيلات، فلم يكن يعلم أن صوته ذلك ما هو إلا مجرد همس أجش ليس له صدى، وأن كلماته تلك لم تكن إلا مجرد أنفاس بسيطة تكون سحبًا بيضاء صغيرة وسط الظلام والبرودة.

لم تكن لغته بليغة، بل كانت اللغة البسيطة التي اعتاد أن يستخدمها مع الشبان من القرى المجاورة في مشاحناتهم أمام الفتيات. لم تكن تستغرق مشاحناته اللفظية تلك وقتًا طويلًا، لأنه سرعان ما كان يبدأ في ضرب أولئك الشبان، فبالنسبة إلى "فاراندولا"، لتسديد اللكمات أثر أكبر وأبقى من تبادل الشتائم والإهانات.

كان يوجه إلى هؤلاء الشبان العديد والعديد من الشتائم، كان يدعوهم بأنهم شواذ وضعاف جنسيًا وأبناء عاهرات، وكانت تغضبهم تلك الشتائم وتحثهم على العراك. كان يفعل الشيء عينه مع البرد والجوع في أثناء فترة هروبه، فكان يلعن الجوع وأمه والبرد وأمه والنوم وأمه وكان النوم ألد أعدائه وقتها، لأنه يتظاهر أنه صديق في حين أن كل ما يريده هو أن يغفو «فاراندولا" لكي يسلمه للموت. وكان يشعر بتلك الشتائم ويتصورها على هيئة شعاع داكن يصعد إلى السماء. لم تكن شتائمه تلك سوى تنهدات خفيفة

لأن صوته كان يعلق في حلقه ويتقطع قبل أن تخرج الكلمات من فمه.

كان يتظاهر أنه يصفع البرد والجوع ليحثهما على ألا يبقيا ضعيفين هكذا. كان يخبرهما أنه لا يمانع أن يشعر بقليل من الجوع أو البرد، كان يشعر بالعار لأن أعداءه بهذا الضعف.

كان يردف وهو يلهث:

- أهذا كل ما تقويان على فعله؟

كان يضحك باستهزاء ويتصور أنه يضحك بصوت عالٍ وأنه يعرض نفسه للخطر حيث يمكن لأعدائه الحقيقيين أن يسمعوه، فهم منتشرون في كل مكان يبحثون عن الهاربين لكي يقتلوهم بعد ذلك. لكنّ أعداءه الحقيقيين لم يكن ليسمعوه قَطُّ، فصوته لم يكن سوى أنفاس ضعيفة مهتزة شبيهة بحشرجة الموت، لكنه لم يكن يعلم ذلك وبداخله كان على يقين أنه يتحداهم بضحكاته العالية تلك.

كان يتصور الجوع والنوم والبرد وهم يجلسون أمامه ويرتدون ملابس سوداء، كانت لهم وجوه كباقي البشر، لكن وجوههم شاحبة ومتعبة. لم يكن لديهم ما يقولونه وكانوا ينظرون إلى بعضهم بعضًا في قلق.

يخاطبهم «فاراندولا» وهو يضحك في أثناء نوبة هذيانه:

- هل تريدون الذهاب؟ لا تذهبوا الآن وإلا سأشعر بالإساءة!

وكما انتصر «فاراندولا» في عراكه على الجوع والبرد والنوم، استطاع أن ينجو ويفلت كذلك من قبضة الرجال ذوي المعاطف الثقيلة.

يظن البعض أن الجبال المغطاة بالجليد عالم صامت وهادئ، لكنّ للجليد ضوضاؤه الصاخبة الساخرة. فكل شيء يتصدع تحت وطأته وتبعث أصوات التصدع تلك الرهبة فيمن يسمعها لأنها تنذر بانهيار وشيك. أما الكتل الثلجية التي تسقط من فوق المنحدرات، فتصدر أصواتًا صاخبة ومرعبة، حتى أبسط الانهيارات الصخرية التي تحدث تجعل الأرض تهتز تحت قدميك وإن كانت بعيدة لمئات الأميال.

يصدر وقع الأقدام فوق الجليد صوتًا مزعجًا أشبه بالنحيب وتصدر كل رقاقة ثلج تقع على النافذة ضوضاء خافتة رتيبة شبيهة بصوت تقليب الصفحات، وعندما تنزل درجة الحرارة قليلًا، يبدأ الجليد بالذوبان يصدر صوتًا أشبه بالصراخ.

ألف العجوز تلك الأصوات لأنه اعتاد أن يمكث بكوخه وسط الجليد للعديد من الشهور، لكنها تصل إليه على هيئة ضوضاء مكتومة أحيانًا تخفت وأحيانًا تعلو وتتصاعد كأنها جزء من نوتة موسيقية.

يرى العجوز أن بعض تلك الأصوات ذات طبيعة شريرة وعدائية، فلا يرد عليها أبدًا لأنه يعلم أن ردودها يمكن أن تجعل الأمور أسوأ، وهو يخاف الجليد ويخشى انهيار السقف فوقه في أي لحظة. لكنه لا يمانع أن يرد على الأصوات الأخرى التي يجدها غير مهددة لأنه يعرف أقصى ما يمكنها فعله، ويتخيل أحيانًا أنها ربما تسخر منه ومن ردوده.

أحيانًا يخاطب صوت تساقط الجليد:

- كما تريد إذن.

أو يوجه كلامه إلى اصطدام جليدي سمع صوته يدوي من بعيد:

- بالطبع!

أما صوت ذوبان الجليد، والذي ينبئ بقدوم الربيع ويُشعر العجوز بالسعادة أحيانًا لكن يثير سخطه في مرات أخرى، فيخاطبه بنبرة حانقة مبالغ فيها:

- حسنًا هل ستتوقف عن هذا أم لا؟

فيرد الكلب وعلى وجهه أمارات الحيرة:

- أتكلمني؟

- لم أوجه كلامي إليك.

- حقًا؟

- نعم، اذهب بعيدًا.

***

من مدة لأخرى، يتذكر العجوز طنين الكابلات الكهربائية الذي اعتاده وهو صغير. كانت البيوت في قريته تصطف بجانب بعضها بعضًا ومن فوقها تمتد كابلات الكهرباء. وكان كل من في القرية يسمعون طنينها المزعج طوال الليل والنهار. وعندما يأتي الظلام وتهدأ الرياح ويقل صخب الأجراس المعلقة برقاب الماشية، كان يعلو الطنين ويسود فوق كل شيء. كان يظن أهل القرية أن الطنين هذا سيقودهم إلى الجنون فكانوا يصرخون ويضربون الماشية ويضرب الرجال زوجاتهم ويشربون زجاجات من النبيذ في محاولة منهم ليتخلصوا من صوت الطنين بداخل رأسهم، تمنى بعضهم لو كانوا لا يسمعون، وبعضهم هرب ولم يعثر عليهم أحد. كانت أمه تردد: «سنصاب جميعنا بالجنون». اعتاد أن يقول أبوه الشيء نفسه قبل أن يأخذ عصا كبيرة ويجري وراءه لضربه وكأن الطنين مسؤوليته. حمّل أهل القرية صوت الطنين ذاك مسؤولية كل الجنون الذي أصابهم، لكنهم نسوا النكبات التي كانت تقع قبل أن تعلق تلك الكابلات. كانت تموت الحيوانات من دون سبب وتولد الحيوانات الصغيرة ميتة أو مشوهة، وتطعن الحيوانات بعضها بعضًا بقرونها. كانت أمه تردد طوال النهار وهي تدعو: "إنها الكابلات! الكابلات!».

اقتنع «فاراندولا" منذ ذلك الوقت أن أي مشكلات برأسه هي قطعًا بسبب تلك السنوات التي قضاها في القرية تحت وطأة الطنين. يردد لنفسه: «لقد أصبت بالجنون»، يقولها بدون أي تأثر على وجهه كأنها ملاحظة عادية، فهناك شخص ما كان عليه أن يصاب بالجنون، وكان هو ذلك الشخص.

يسأل العجوز الكلب:

- هل تعتقد أنني مجنون؟

- لا، لكنني أراك غريبًا بعض الشيء.

- إنها كابلات الكهرباء.

يرفع الكلب رأسه ولا يرى أي كابلات فيسأل:

- أي كابلات؟

- كابلات الكهرباء بالقرية التي نشأت فيها.

# 8



خلال أيام الشتاء الطويلة، يسمع «أديلمو فاراندولا» أحيانًا أصوات طرق على باب الكوخ تجعله يقفز كلما يسمعها. لا يعرف إن كان ذلك الزائر يطرق الباب عليه في الصباح أم المساء، فأسفل طبقات الثلج التي تطوق الكوخ بأكمله، يندمج الليل والنهار ببعضهما، ويتحول ضوء النهار الساطع إلى ضوء أزرق شاحب حتى لا تستطيع أن تفرق بين الليل والنهار.



يسأل العجوز:

- مَن هناك؟

لا يحب العجوز استضافة الغرباء، لذلك يجلس ساكنًا لمدة ويتظاهر بأنه ليس بالكوخ.

يزداد الطرق على الباب.

يكرر العجوز سؤاله مرة أخرى بصوت أشبه بالهمس ولكن أعلى قليلًا، فهو لا يريد حقًّا أن يعرف مَن الذي يطرق الباب، ويجلس في صمت بدون حراك ويحاول أن يكتم أنفاسه حتى لا يسمعه من بالخارج.

ينظر إليه الكلب بنظرات متأهبة لفعل شيء ما ويسأله:

- ماذا عليَّ أن أفعل؟ هل أصدر نباحًا؟

- لا. لا تتحرك.

- لكنني أريد أن أنبح.

- أعلم ذلك لكن ابقَ صامتًا، أيًا كان من بالخارج، فسيذهب سريعًا.

- هل تظن ذلك؟

ينتظر الكلب من بالخارج ليطرق الباب ثانية، وترتفع أذناه وتقفان في قلق، ثم تصدر منه زمجرة.

يأمره العجوز:

- إياك أن تنبح وإلا سأضربك حتى الموت!

يصدر الكلب صوتًا خفيضًا ينم عن إحباطه.

في المساء، يقل صوت الطرق ويخفت، لم يكن ذلك زائرًا بل إنه الثلج، تلك الطبقة السميكة التي تطوق الكوخ بأكمله وتحجبه عن الشمس، والتي جعلته يبدو من الخارج وكأنه انتفاخ صغير خارج من الأرض البيضاء الناعمة حوله. إنه الثلج الذي يطرق الباب ويريد أن يدخل.

أحيانًا تصل أصوات الطرق هذه إلى العجوز في نومه وتوقظه، فمنذ ذلك الوقت الذي قضاه هاربًا في الغابات، أصبح نومه خفيفًا. يستيقظ من نومه ويجلس بالساعات وهو يحدق بالظلام منتظرًا أن يعود للنوم مجددًا. لكن تلك الأصوات ضعيفة وبعيدة، لدرجة أنه لا يستطيع أن يحدد سواء كان يسمعها حقًا أم يحلم أنه يسمعها، أحيانًا يصل به الحال إلى الدرجة التي لا يستطيع أن يحدد سواء كان مستيقظًا حقًا أم يحلم أنه مستيقظ.

في تلك اللحظات التي يختلط فيها الواقع بالحلم، وسط الظلام والرطوبة التي تملأ الكوخ بأكمله، يشعر العجوز كما لو أنه ما زال مختبئًا بالنفق الضيق المظلم الذي قضى به مدة كبيرة من شبابه في أثناء هروبه. ويتذكر الأحاسيس كافة التي كان يشعر بها وقتها، فينتابه خوف من أن يحرك يديه أو مرفقيه حتى لا يصطدما بجدران النفق التي تحيط به وتضيق عليه كأنها على وشك أن تبتلعه.

يسأل العجوز الكلب عندما يسمع تلك الأصوات:

- أتسمع تلك الأصوات؟

فهو يريد أن يتأكد أنه لا يحلم بها وأن الكلب أيضًا يسمعها.

- بالطبع أسمعها.

- هذا جيد.

- ماذا عليّ أن أفعل؟ هل تريد أن أنبح؟

- لا.

يعتقد العجوز أن الثلج الذي يغلف الكوخ من الخارج ويحيط به يتحرك ويتنفس، وأنه بعد أن يطوقهما تمامًا، ينتظر قليلًا قبل أن يلتهمهما ويقضي عليهما. يفضل ألا يخبر الكلب باعتقاده ذلك، فهو يخاف ويصاب بالذعر عندما يسمع صوت تقطر الثلج بالخارج. يتساءل العجوز كيف سيتصرف الكلب في الربيع عندما يذوب الثلج حول الكوخ؟ كيف سيتصرف عندما يسمع صوت الثلج وهو يتكسر ويتساقط يا ترى إن كان يخاف من أقل الأصوات؟

أحيانًا يبدو كما لو أن صوت الطرق يأتي من الإسطبل.

يصيح العجوز وهو يعتدل في جلسته:

- إنها البقرات.

فجأة يتذكر العجوز أن عليه حلب البقرات وتحضير اللبن، فيقفز من سريره ويلف نفسه ببطانيتين ويذهب إلى الإسطبل.

يذهب الكلب وراءه ويسأله:

- أي بقرات؟

يهمس العجوز:

- لقد هربت.

- لم أرَ أي بقرات منذ أتيت إلى هنا.

ينظر العجوز إلى الإسطبل من حوله في حيرة، فلا يوجد سوى كراتين التفاح والبطاطس وأكياس الدقيق والنبيذ وأغصان الشجر التي يخزنها من أجل إشعال الموقد وباقي الأدوات عديمة الفائدة.

يتمتم مجددًا:

- أين ذهبت البقرات؟!

يتركه الكلب ويذهب إلى الكوخ مجددًا لينعم بالقليل من الدفء.

مع ذلك، فور أن يغلق «فاراندولا» باب الإسطبل، تصل إلى أذنه أصوات غريبة قادمة منه، صرير سلاسل تتحرك وأشياء تنزلق وتنكسر كأن شخصًا يبحث عن شيء ما. يستمع إلى تلك الأصوات المكتومة وهو يقاوم رغبته ليذهب ويرى مصدرها. يسمع الكلب تلك الأصوات أيضًا وترتعش أذناه في عصبية لكنه يتظاهر أنه نائم ولا يتحرك.

يتمتم العجوز لنفسه ليلًا عندما يسمع تلك الأصوات: «إنها الكابلات، كابلات الكهرباء».

يتخيل أنه يسمع طنين الكهرباء بالكابلات، الصوت الذي اعتاد أن يلاحقه في كل مكان عندما كان فتى صغيرًا. لكن تلك الأصوات لم تكن كابلات الكهرباء بل همهمة الجراد وأصوات المحركات التي تأتي من الطريق بأسفل الوادي.

يقول لنفسه: «ستقودني تلك الكابلات إلى الجنون»، ثم ينظر من النافذة كأنه سيراها بالخارج. يعتقد لوهلة حقًا أنه يرى الأعمدة العالية التي تمتد من بينها كابلات الكهرباء من وراء النافذة وجدار الثلج، وأنه يسمع صوتها، ذلك الطنين العالي المزعج.

أحيانًا يحلم العجوز أنه يطارد أوراقًا نقدية تطير في الهواء، أو يبحث عن أموال خبأها بمكان ما ونسي مكانها فيظل يردد: «المال! المال!»، حتى بعد أن يستيقظ ويعرف أن ذلك لم يكن سوى حلم.

لطالما أبقى حقيبة مليئة بالنقود في متناول يديه، حصل على النقود التي

بداخلها جراء بيع الوادي الآخر. كان قد شجعه أخوه عند بيع الوادي أن يحتفظ بالمال في البنك، لذلك فهو يمتلك في حسابه البنكي نقودًا أكثر، لكنه نسي أمر ذلك المال تمامًا ولا يهتم سوى بالنقود الرطبة الموجودة بالحقيبة والتي يستخدمها ليشتري بها ما ينقصه.

يتمتم العجوز: «المال! المال!»، ويلف نفسه ببطانيتين قبل أن يذهب إلى الإسطبل. يتذكر أن المال بأمان في مكانه هذا. ولكن في كل مرة، وقبل أن يتذكر ذلك، عليه أولًا أن يعاني لساعات وهو يبحث عنه، يقذف بكراتين التفاح والبطاطس بعيدًا وينبش تربة الإسطبل المليئة بروث الماشية التي اعتادت أن تعيش فيه. ومن على عتبة الباب، يشاهده الكلب وهو يتثاءب.

عندما يجد النقود أخيرًا، يقف أمامها في حيرة ولا يعرف ماذا يفعل بها. يتبدل إحساسه الراحة والطمأنينة لإيجادها ليحل محله إحساس بالإجهاد والتعب ويشعر حينها أنه عليه أن يخبئها مجددًا في مكان جيد جديد حتى لا يعثر عليها أحد. ويأخذها في مرة من المرات التي يترك بها الكوخ ويذهب إلى القرية. يمسك الحقيبة بيده ويلف في الإسطبل باحثًا عن مكان لن يخطر ببال أحد، مكان سوف ينساه هو نفسه بالتأكيد لاحقًا.

خلال ذلك الشتاء الطويل الذي يقضيه «فاراندولا» وهو محاط بالجليد، حيث يفقد الوقت ملامحه ويتحول فيه الليل إلى النهار دون أن يعي ذلك، لا يستطيع العجوز أن يفرق بين الاستيقاظ والنوم. فالشخصيات التي تزوره في أحلامه ينتهي بها المطاف جالسة معه يكلمها خلال النهار أيضًا. في أحلامه يزوره أعداد كبيرة من الناس ويتجولون بداخل الكوخ وينظرون إلى كل شيء به بفضول. في معظم الأحيان، يكون أولئك الناس أشخاصًا من القرية، يأتون وهم يرتدون ملابس صيفية أو خريفية، وهي الأوقات من العام التي يذهب فيها العجوز إلى القرية ليشتري ما ينقصه. يحيونه بإشارة من يدهم أو ابتسامة بسيطة وهم يمرون من أمامه لكنه لا يتنازل ويرد على تلك التحية أبدًا. أحيانًا تتحاور تلك الشخصيات مع بعضها بعضًا أو مع شخصيات أخرى لا تنتمي إلى هذا الوقت، أشخاص عرفهم العجوز

في الماضي ويأتون لزيارته في صمت، أصدقاء قدامى من طفولته وأقارب تربطهم به صلة بعيدة وأشخاص يعرفهم لكن لا تربطهم به أي صلة قرابة، وامرأتان خجولتان كانتا في وقت ما لديهما مكانة خاصة بقلبه وكانتا تجعلان قلبه يدق بسرعة. يجلس العجوز ويتساءل هل كان يحلم أم جاء أولئك الأشخاص بالفعل؟

يأتيه أحيانًا شخصيات لا يعرفها، أشخاص ذوو قامة طويلة، ينتظرونه في صمت ليقول شيئًا لكنه لا يتكلم أبدًا، ويتعمد أن يبقى صامتًا حتى تختفي تلك الشخصيات الغريبة.

في منتصف فصل الصيف، تمتلئ بعض البرك أسفل الوادي بالعديد من الضفادع الجبلية التي تترك خلفها مجموعات هائلة من البيض. عندما تُدفئ حرارة الشمس مياه البرك، تتغذى الكائنات الهلامية وتنمو داخل البيض، وبحلول شهر يونيو، تظهر الآلاف من الضفادع الصغيرة التي تملأ البرك بأكملها. تبدأ الضفادع الصغيرة بالتجمع حول ضفاف البركة بدفع أنفسها بواسطة أجسامها الرخوة ثم تبدأ بعد ذلك في مهاجمة والتهام وتمزيق أجساد بعضهم بعضًا.

يصف «فاراندولا» تلك الضفادع للكلب ويتخيل الذهاب إلى هناك بالصيف للاستمتاع بالهواء الجاف ومشاهدتها وهي تلتهم بعضها بعضًا.

يرد الكلب:

- لم أرَ مثل تلك المخلوقات قَطُّ. ماذا يطلق عليها؟

- ضفادع.

- لم أكن لأخمن ذلك.

- ضفادع مولودة حديثًا. عليك أن تراها وهي تلتهم بعضها. شيء لا يصدق. لماذا تفعل ذلك يا ترى؟

- كيف لي أن أعرف؟

- ربما لتحظى بمساحة أكبر، منظرها مخيف وهي تأكل بعضها هكذا.

- لماذا لا توقفها عندما تفعل ذلك؟

يضحك العجوز وينحني ليرى أسفل قدميه كأن تلك البرك المليئة بالضفادع موجودة بالكوخ أمامه، يجلس الكلب بجانبه وهو يتشمم الهواء حوله ويحاول أن يلتقط رائحة تلك الضفادع. يسأل أخيرًا:

- كيف تبدو رائحتها؟

- حسنًا.. ممم.. إنها تشبه.. كيف لي أن أصفها يا ترى؟

- لا تهتم.

يفرد العجوز ذراعه ويمد يده أسفل قدميه كأنه يمدها إلى البركة، ويرفعها ثانية وهي مليئة بالعديد من الضفادع الصغيرة.

يسأله الكلب كأنه يراها:

- هل هي سعيدة؟ تبدو سعيدة وهي تهز ذيولها هكذا.

- سعيدة؟ لا أعرف. هل تريد أن تتذوقها؟

- ماذا؟

- ألا تريد أن تعرف مذاقها؟

- هل تمزح معي؟ أم تظن أنني مغفل؟

يضحك العجوز ويلقي بالضفادع الخيالية بيده في فمه ويبتلعها.

يسأله الكلب بنبرة موبخة:

- ماذا ستقول إن فعلت أنا ما تفعله الآن؟

- إنها خسارتك، مذاقها لذيذ.

يبتلعها العجوز وهي نيئة دون أن يمضغها، وترتسم على وجهه ابتسامة كأنه يشعر بها وهي تهز ذيولها وتمر بحلقه.

يقول بعد أن يشعر بها وقد استقرت بمعدته:

- ها هي أخيرًا.

يكرر العجوز ما فعله ثانية ويلتهم بعض الضفادع مجددًا ويشاهده الكلب في حيرة، ولا يعرف إن كان يجب أن يسيل لعابه أم لا.

بعد أن يتناول «فاراندولا» للمرة الثالثة، يقول الكلب:

- ربما يجب أن أتذوقها، أغرتني رؤيتك وأنت تأكلها.

- تفضل. أظن أنني لن أحتاج إلى العشاء بعد تلك الوجبة.

يحني الكلب رأسه ويلصق فمه بالبركة الخيالية أسفل قدمه والمليئة بالكائنات الهلامية الصغيرة ثم يرفع رأسه وهو يمضغها ببطء.

يسأله العجوز:

- ما رأيك؟

- لا بأس.

- عليك أن تعتاد مذاقها، سنجربها مرة أخرى غدًا، ستجد أن مذاقها أصبح لذيذًا أكثر. هذا ما حدث معي أول مرة.

يلعق الكلب أنفه ليتخلص من الرائحة النتنة للبركة التي تخيلها، وينظر إلى صديقه وفي عينيه شيء من الشفقة.

# 9



يقف «أديلمو فاراندولا" بجانب النافذة وهو يتوسل إلى الثلج لكي يذوب، فقد نفد الطعام بأكمله بالأمس، والآن ليس لديهم أي شيء.

يسمعه الكلب من مكانه فيتوسل هو الآخر إلى الثلج لكي يذوب، فبعد أن نفد الطعام، يمكن للعجوز أن يقتله ويأكله، تمامًا كما قال له من قبل.

بالرغم من حرص العجوز على الاكتفاء بالقليل في طعامه، نفدت المؤن هذه المرة مبكرًا، كما أنه ليس وحده من يستهلك الطعام، فهناك الكلب أيضًا، والآن نفد الخبز والجبن والنقانق والبطاطس والتفاح واللحم المجفف، حتى اللحم الفاسد وجلود الحيوانات التي اصطادها نفدت أيضًا منذ أيام.

يسأله الكلب في قلق:

- ماذا نفعل؟

يرد عليه «فاراندولا» الذي لا يزال بجانب النافذة ولا يرى من ورائها سوى جدار الجليد الذي يبعث على الكآبة ويشبه في لونه لون السماء:

- ننتظر.

يقرر الكلب ألا يأتي بسيرة الطعام حتى لا يشجع خيال العجوز على تنفيذ ما قاله بشأن التهامه في حال نفاد الطعام.

يسأله العجوز:

- تشعر بالجوع؟

يرد الكلب وهو يتثاءب، كأن حديثه كان فقط من باب تمضية الوقت:

- لا، على الإطلاق!

لكن كلاهما كان مستيقظًا طوال الليل بسبب التقلصات الصادرة من معدتيهما حتى تخيل العجوز أن معدته على وشك أن تخرج من فمه لتبحث عن الطعام بنفسها.

مرت ثلاثة أيام بدون طعام وليس لديهما سوى الماء، كل ما عليهما فعله إن شعرا بالعطش أن يفتحا الباب ويجمعا بعض الثلج في قدر ويضعانه فوق الموقد. لكن الماء وحده ليس كافيًا وهو ما يجعل العجوز يجثو على ركبتيه ويبحث عن فتات الخبز بأنحاء الغرفة من شدة الجوع.

يسأل الكلب:

- هل تبحث عن شيء ما؟

- فتات الخبز.

- لقد أكلته كله. لو كنت أعلم لتركت لك البعض.

يقضي كلٌّ منهما ساعات بالبحث في أرجاء الكوخ والإسطبل عن أي بقايا طعام يأكلانها، وأي قطعة صغيرة يجدانها يتقاسمانها أولًا ثم يلتهمانها. أحيانًا يذهب العجوز ويلعق بعض القدور والأواني القديمة لعلها تحمل بقايا طعام كان طهاه من مدة لكن كل ما يجده هو بقايا شحوم متراكمة.

يجبرهما الجوع على النوم مبكرًا، فالنوم هو المهرب الوحيد لديهما من شعورهما الدائم والمزعج بالجوع. لكن حتى في أحلامهما يتملكهما شعور قوي ومُلح بالجوع ويحلمان أنهما في انتظار طعام يتأخر كثيرًا ولا يصل بالنهاية، أو يحلمان بطعام يريانه أمامهما وغير قادرين على الوصول إليه.

من كل حين إلى آخر، ينهض العجوز من فراشه ويذهب إلى النافذة ليراقب مستوى الجليد ثم يذهب مرة أخرى إلى الفراش دون أن ينبس ببنت شفة. حتى الكلب فقد قدرته على الثرثرة ولا يفعل شيئًا سوى أن يبقى بمكانه وهو

ملتف حول نفسه، مصدرًا تنهدات تنم عن اعتراضه على وضعهما الحالي.

ينفجر العجوز أخيرًا ويصيح:

- توقف عن هذا!

- عن ماذا؟

- الشكوى.

- لم أكن أشتكي، مع أن هناك أسبابًا كثيرة تدفعني لذلك. أولًا تدعوني إلى المكوث معك. بعدها تكتشف أن ليس لديك طعام كافٍ لفردين! مغفل!

- لو وقعت بيدي سأقتلك وأطهوك!

يصدر الكلب زمجرة تنم عن استهزائه بكلام صاحبه ويظل بمكانه، فهو يعلم جيدًا أن الجوع جعل العجوز ضعيفًا ولن يقدر على فعل أي شيء له.

***

تمر بضعة أيام أخرى بدون طعام. يحدق كلٌّ من العجوز والكلب إلى بعضهما، كلٌّ من مكانه الذي يجلس فيه وهما منهكان من شدة الجوع، ويفكر كلاهما بالشيء نفسه؛ من ينجو منهما سيأكل الآخر وسيمده ذلك بقليل من الطاقة تجعله يتحمل حتى يأتي الربيع ويذوب الجليد. لكن ذلك الشعور بأنه يمكن أن ينتهي بهما الأمر ليصبحا مجرد وجبة يأكلها الآخر هو ما يبقيهما حيين حتى الآن. فكلاهما لا يريد أن تصبح نجاة الآخر في موته، وكلاهما يريد أن يثبت أنه الأقوى.

ينهض «فاراندولا» من فراشه، وببطء شديد، يضع غصن شجرة متفحمًا في الموقد، فقد قرر أن يغلي روث الماشية الذي يغطي أرضية الإسطبل. وفي انتظار الماء لكي يغلي، يبدأ العجوز بتقشير الطبقة التي تكونت فوق جسده منذ سنوات بسبب تراكم العرق والجلد الميت والأتربة، ويتناول القطع الصغيرة التي تتساقط. على الرغم من مذاقها البشع، فإنه يظنها مغذية. يستمر في تقشير جسده بأظافره حتى يكشف بالنهاية عن بشرته ناصعة

البياض التي تختبئ تحت كل تلك الطبقات من الوسخ.

يشاهد الكلب كل حركة تصدر من صاحبه العجوز بانتباه كأنه مسحور، ثم يرجوه:

- أيمكنني أن ألعق جزءًا صغيرًا؟

- لا.

بالنهاية، وبعد أن يشعر «فاراندولا» بالغثيان ويتوقف عما يفعله، يسمح للكلب بتذوق تلك الطبقة التي تغلف جسده.

نهار، ليل، نهار، ليل.

***

ما زالت تثلج بالخارج، أحيانًا يستمر الثلج في التساقط طوال الليل. أما بالنهار، فتهب رياح عنيفة دافئة وتُذوِّب بعض الثلج، ثم يأتي بعد ذلك الليل مجددًا وتنخفض درجة الحرارة فيتجمد الثلج مرة أخرى ليصبح صلبًا كالصخر. كلما يعتدل الجو ويبدو كأن الشتاء قد شارف على الانتهاء، تبدأ السحب بالتجمع، ويتساقط الثلج من جديد فوق الطبقة المتجمدة التي تغلف الكوخ، وتتساقط كتل جليدية ضخمة من القمم تجرف في طريقها كل شيء وتقطع رؤوس الأشجار. لكن لا بد لذلك الشتاء الطويل أن ينتهي. يشعر العجوز أن حبسهما داخل الكوخ على وشك الانتهاء، يشعر بذلك كلما سمع صوت الجدار المتجمد الذي يحيط بهما وهو يتكسر وينشرخ فيصدر صوتًا أشبه بالنواح، وصوت ذوبان الثلج وتقطر المياه الذي يبدأ مع أول ظهور لأشعة الشمس ولا ينتهي إلا مع الغسق.

يتمتم لنفسه وهو يغذي النار بالورق وآخر قطعة خشب لديه: "أوشك الشتاء على الانتهاء، اقتربنا من الربيع". ثم يلتفت إلى الكلب الذي يغلبه النعاس وأمسى غير قادر على التحرك ليبشره بانتهاء الشتاء ويهمس له:

- أوشك الشتاء على الانتهاء.

مع كل يوم، يقل ارتفاع الجدار الجليدي الذي يحيط بالكوخ بسبب ذوبان الثلج. وفي صباح يوم ما، بينما يفتح العجوز النافذة، يتفاجأ بشعاع شمس قوي وساطع يتسلل من فوق جدار الجليد إلى الغرفة ليبدد الظلام الذي تعوداه طوال الخمسة أشهر الماضية. ينبح الكلب عندما يفاجأ بذلك الشعاع المتطفل وينظر بفزع إلى ذرات الغبار المتطايرة التي تلمع من خلاله. يشاهده العجوز ولا يعلم ماذا يفعل، يضحك على الكلب أم يبدأ بإلقاء الشتائم مثلما يفعل مع أي غريب يتطفل عليه بالكوخ ويبحث عن مقاعد خشبية قديمة أو بعض الجبن؟

يصيح العجوز في فرح:

- انتهى الشتاء!

- حسنًا، لا بد أنني أخطأت الفهم.

- سيكون في وسعنا الخروج قريبًا، هل أنت سعيد؟

يخرج الكلب لسانه ويحني رأسه ولا يرد. تبعث الشمس أشعتها الدافئة في جميع أنحاء الوادي لكن ما زال الجدار الجليدي يغلف الكوخ من الخارج ولا بد أن يأخذ وقتًا طويلًا حتى يذوب. يفكر كلاهما كم من الرائع أن يقضيا حاجتهما بالخارج مجددًا فوق العشب ويستمتعا بالنسيم وهو يدغدغ أعضاءهما. فطوال الفترة الماضية، كانا يقضيان حاجتهما في دلو يُفرغه العجوز بعد ذلك من خلال فتحة أفقية حفرها في الجدار الجليدي مباشرة أمام باب الكوخ. يسرح الكلب هو الآخر ويفكر كم من الممتع أن يذهب من جديد إلى بقاعه المفضلة ويميزها بقضاء حاجته بها حتى لا يأتي كلب آخر ويسيطر على تلك المنطقة، ومع ذلك فليس هناك ما يدعو الكلب أو العجوز إلى قضاء حاجتهما، فكلاهما لم يأكل منذ أيام.

يوم بعد يوم، يقل ارتفاع الجليد حول النافذة وباب الكوخ حتى أصبح باستطاعتهما أن يريا العالم الخارجي بوضوح، والذي لا يتكون سوى من جليد ناصع البياض يغطي كل شيء وسماء زرقاء وجبال رمادية بعيدة. بدأت

طبقة الجليد التي تغطي سطح الكوخ بالذوبان أيضًا، عرف العجوز ذلك من خلال صوت تقطر المياه القادم من السطح والذي لا يتوقف أبدًا ويبقيهما مستيقظين طوال الليل وغير قادرين على التركيز في أي شيء خلال النهار. بالخارج، تتساقط العديد من الكتل الجليدية الضخمة من أعلى قمم الجبال وتصطدم ببعضها مصدرة أصواتًا عالية شبيهة بالصراخ ومع كل اصطدام، يعلو الصوت أكثر. أخيرًا يأتي اليوم الذي يتمكنان فيه من الخروج، يخرجان ويقفان لبرهة فوق عتبة الكوخ المكسوة بالجليد الملطخ بالطين. مع كل خطوة يقطعها «فاراندولا»، يغرق حتى فخذيه في الثلج، أما الكلب، ولأنه أخف، فيقرر أن يمشي فوق الطبقات التي ما زالت صلبة قليلًا، ولكنه يخطو فوق بعض الطبقات غير المتماسكة فيغرق حتى أذنيه ويظل يضرب بيده حوله في ذعر فيضحك العجوز عليه.

يخبره العجوز:

- توقف عن هذا.

يصرخ الكلب بذعر:

- ساعدني! أغرق!

- لا يهمني ذلك.

- لا تتركني! أكاد أموت!

بالنهاية يظهر الكلب فوق السطح مجددًا وهو يبصق الثلج بفمه ويرتجف ثم يغرق من جديد ويتكرر الصياح والذعر مجددًا، ثم ينفجر بعد ذلك في نوبة ضحك رغمًا عنه.

بالنهاية يقول:

- سأدخل إلى الكوخ..

لكنه يبقى بمكانه من دون حراك.

يقف الكلب وهو منبهر من المشهد الذي يراه أمامه؛ الهواء البارد والشمس

الساطعة والجليد، يشعر كلاهما بالبهجة والحماس لما يريانه حتى نسيا أمر الطعام تمامًا.

- أيكون المنظر كذلك دائمًا؟

- مَن يمكنه تذكر شيء كهذا؟ أعتقد ذلك. لكنه يستحق المشاهدة، أليس كذلك؟

يقصد العجوز أن المنظر الذي أمامهما الآن يستحق التعفن داخل الكوخ لأشهر وأن يتضورا جوعًا إلى أن يصبحا على وشك الموت، كل ذلك يستحق الشعور الذي يشعران به الآن، الاستمتاع بالصفاء والبياض الذي يحيط بهما من كل اتجاه. يهز الكلب رأسه موافقًا وهو يشعر بالسعادة.

عندما بنى السكان القدامى للوادي الكوخ الذي يعيش به العجوز، كانوا حريصين على أن يبنوه فوق منطقة لا تسقط فوقها أي صخور ضخمة أو كتل جليدية من أعلى الجبل. استطاع العجوز أن يختبر صحة ذلك ويتأكد منه منذ سنوات؛ فأي كتل جليدية ضخمة تسقط من أعلى الجبل، عند حدوث أي انهيار جليدي، تمر بأحد جانبي الكوخ لكن لا تصطدم به أبدًا. أحيانًا تقترب تلك الكتل من الكوخ لكنها تتوقف دائمًا قبل عتبة الباب ببضعة أمتار ولا تتدحرج إلى أبعد من ذلك.

يقف العجوز أمام إحدى الكتل الجليدية التي وقعت بالقرب من كوخه ويشاهد تلك القطعة الهائلة من الجليد والتي جرفت في طريقها العديد من الصخور حتى تجمد الثلج من حولها وأخذت شكلًا غير محدد. يبرز من تلك الكتلة العديد من حبيبات الحصى، كذلك بعض الصخور الضخمة وبعض الأغصان وجذع شجرة كبير. يبدأ الكلب بتشمم الأرض حول الكوخ ثم يتجه صوب الكتلة الجليدية حيث يقف صديقه. يتذكران عندما تَدَحرَجَت تلك الكتلة الضخمة في أحد الأيام من الشهر الماضي حتى استقرت بجانب الكوخ ويتذكر كلاهما ذلك اليوم جيدًا. ففي ذلك اليوم، هبت عاصفة قوية كادت تقتلع السقف لولا وجود تلك الطبقة الصلبة من الجليد فوقه، وعلى الأرجح هي التي أدت إلى سقوط تلك الكتلة الضخمة من أعلى الجبل. صدر

عن ارتطام الكتلة بالأرض التي بجانب الكوخ ضوضاء عالية عنيفة خطفت أنفاسهما واهتزت الجدران الحجرية للكوخ بشدة مصدرة صوتًا وكأنها رقائق معدنية خفيفة. كاد يوقعهما الاهتزاز من أماكنهما، وأوقع عدة زجاجات من فوق أحد الرفوف.

يسأل العجوز الكلب الذي يتشمم الكتلة الجليدية أمامه بعناية:

- هل تشم شيئًا؟

- أشم رائحة ما.

- أنت دائمًا تشم شيئًا ما.

- نعم، لكن تلك الرائحة قوية، ألا تشمها؟

- لا أشم أي شيء.

- استخدم عينيك إذن وأخبرني إن رأيت شيئًا.

يقترب كلاهما من الكتلة الجليدية أكثر، يستطيع العجوز أن يخمن الرائحة التي جذبت انتباه الكلب. فمع مرور الأيام، وكلما ذاب الجليد، تظهر العديد من جثث الحيوانات - كالظباء والماعز الجبلي - من أسفل تجمعات الثلج. تتقطع أجساد تلك الحيوانات إلى أجزاء بفعل القوة التي تصطدم بها الكتلة الجليدية، والتي تجرف في طريقها العديد من الصخور الحادة الصلبة وجذوع الأشجار، وبذلك يحافظ الثلج على لحمها طازجًا ولا يتعفن. عادة ما يستغل العجوز تلك الهدية التي تهديها إياه الطبيعة، فبحلول الربيع، دائمًا ما تكون اللحوم نفدت. فيستخرج أشلاء تلك الحيوانات ويطهوها بعد أن يزيل الشعر والجلد عن أجسادها، كما أنه يستخدم عظامها في تحضير الحساء الذي يضيف إليه النبيذ قبل أن يشربه.

يسأل العجوز الكلب:

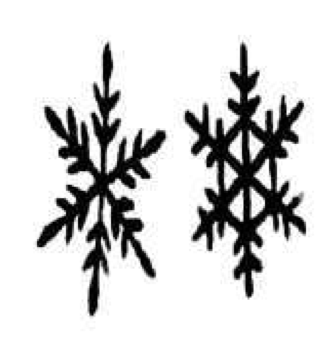
- أي حيوان هذا؟

لا يجيبه الكلب، فيسأله مجددًا:

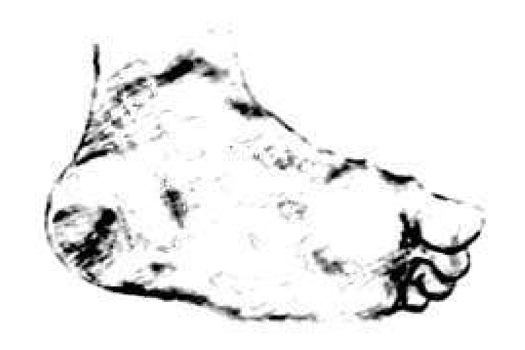
- ألا يمكنك أن تتعرف عليه؟

يهمس الكلب في صدمة ودون حراك:

- هذا ليس حيوانًا.



# 10



إنها قدم إنسان، لونها رمادي ومشوهة بالكدمات، وليست خف أحد الحيوانات كما ظن العجوز. تبرز القدم من أحد جوانب الكتلة الجليدية الضخمة، وتشبه الطريقة التي تبرز بها من الجليد النبتة الصغيرة التي تشق طريقها عبر طبقات التربة بصعوبة قبل أن تتمكن أخيرًا من أن تصل إلى السطح، حيث أشعة الشمس القوية والهواء المنعش اللذان يسمحان لها أن تكبر وتتفتح.

يصيح العجوز في دهشة:

- إنها قدم إنسان.

- هذا هو حظك.

- ترى كم مر من الوقت وهي مدفونة هنا؟!

- تلك الانهيارات الجليدية لا ترحم أحدًا.

- هل تعرف شيئًا عن الانهيارات الجليدية؟

- لا أعرف شيئًا، لكن هذا ما يقوله الناس، أتريدني أن أبحث عن باقي أجزائه؟

يتحرك الكلب بخفة ويقترب أكثر من الكتلة الجليدية أمامه، فهو على أتم الاستعداد أن يغرس كفيه في الثلج لتحفرا فيه حتى تدميا.

- لن تصل إلى شيء أيها المغفل، ستجرح كفيك!

- لا أبالي بذلك.

- أتحسب نفسك كلبًا من سلالة "سانت برنارد"؟

- لا، هذا من حسن حظي. أرأيت كيف يسيل لعابها؟

يقف كلاهما طويلًا أمام القدم المكدومة وهما يحدقان إليها إلى أن يتخيلا أنها تحركت.

يصيح الكلب:

- لقد تحركت!

- لم تتحرك، أنت تتخيل ذلك.

- ربما لا يزال حيًا.

- اصمت.

- ألا تعتقد ذلك؟

- إنه ميت! تلك الانهيارات الجليدية لا ترحم أحدًا.

- هذا ما قلته منذ قليل.

- كل ما أعرفه أنه إن كانت إحدى قدميه هنا، فالقدم الأخرى ستكون على بعد عشرة أمتار هناك.. أما الأذرع.



- حسنًا حسنًا.

- علينا أن ننتظر.

يسأله الكلب:

- ننتظر ماذا؟

- أن يذوب الجليد تمامًا وتتحرر القدم، سيذوب الجليد خلال شهر.

- بعدها ماذا؟ سنجمع باقي الأجزاء؟ وماذا علينا أن نفعل في الوقت

الراهن؟ ألا تريد أن تلقي بعض الكلمات؟

- مثل ماذا؟

- صلاة مثلًا، أليس هذا ما يفعله البشر؟

- لا أعرف أي صلوات.

- حقًا؟

- أعني لا أتذكر واحدة.

- ألا تملك كتابًا للصلوات؟ أهذا ما تطلقون عليه؟

- لم أمتلك واحدًا قطّ.

ينصرف الكلب من جانبه ويمشي في دوائر كأنه يحاول أن يصل إلى قرار ما بشأن تلك القدم، ثم يذهب لقضاء حاجته عند جذع شجرة بعيد لا يظهر إلا نصفه بسبب الثلج.

***

دائمًا ما يصحب ذوبان الجليد رائحة كريهة وقوية، رائحة التعفن. تبقيهما تلك الرائحة مستيقظين طوال الليل من قوتها. فكلما ذاب الجليد، ظهر العديد من جثث الحيوانات التي ماتت من الجوع أو البرد أو سحقت بسبب الانهيارات الجليدية. تظهر تلك الجثث من أسفل الثلج وتدفئها حرارة الشمس فتتسرب غازات كريهة الرائحة من أجسادها وتجذب مختلف الحشرات والحيوانات.

تصل الحشرات الصغيرة أولًا وتلعق أطراف الجثة المتعفنة. ثم يأتي بعدها الطيور المستعدة لالتهام أي شيء حتى تشبع جوعها. ثم تأتي الثعالب بالنهاية والتي تستيقظ من أوكارها بسبب الرائحة النفاذة، تتعقب الرائحة حتى تصل إلى إحدى الجثث وتستمر لمدة من الوقت في شمها وهي مسرورة، فأخيرًا ستتسنى لها الفرصة لتأكل شيئًا. تشجع صغارها على تذوق قطعة صغيرة بينما تسمح للكبار باختيار القطعة التي يريدونها.

أحيانًا وفي أثناء البحث عن جثث الحيوانات وسط الثلج، تعثر بعض الحيوانات على جثث لحيوانات من فصيلتها نفسها. عندما يحدث هذا، فإنها تتشمم الجثة بطريقة مختلفة، كأنها تحاول التعرف على صديق قديم تغيرت ملامحه، فتلكزها بأفواهها وكفوفها لتوقظها من سباتها العميق. تبدو تلك التصرفات لمن يشاهدها كأنها محادثة بين صديقين قديمين لم يريا بعضهما منذ زمن. في الغالب لن تأكل تلك الحيوانات أي جزء من الجثة التي أمامها، إلا إذا كان الجوع قد تركها منهكة ومشتتة، فحينها فقط تتصرف ضد طبيعتها وتشرع في التهام الجثة التي أمامها.

يخرج الكلب والعجوز من الكوخ ليجمعا بعض الطعام. يغلقا أعينهما فور خروجهما بسبب أشعة الشمس القوية. يعلق الكلب:

- أحب تلك الرائحة.

- أي رائحة؟

- تلك التي نشمها. التعفن. رائحة الأرض والطين وفضلات الحيوانات والزهور التي تتفتح. ربما يجعلني ذلك الجو عاطفيًا قليلًا، لكنني أحب تلك الرائحة.

ثم يقفز بمرح فوق الثلج ولسانه متدلٍ في سعادة، يتشمم العشب الباهت الذي يظهر بعضه من أسفل الثلج ثم يجري بعد ذلك ليخيف بعض الحيوانات التي تجمعت فوق إحدى الجثث.

يشاهده العجوز من مكانه عند باب الكوخ وهو يفكر أنه كان ليفعل ما يفعله الكلب الآن لو كان أصغر عشرين سنة.

***

في اليوم التالي، بينما كانا بالخارج ليجمعا بعض أشلاء الحيوانات التي يمكن تناولها من أسفل تراكمات الثلج، يعثر العجوز على قدم تبرز من إحدى الكتل الجليدية. ينادي الكلب في دهشة ثم يقول:

- انظر إلى هذا!

- إنها القدم التي رأيناها البارحة.

- حقًّا؟

- ألا تتذكر؟

- نعم.. أو قليلًا. لكنني ظننت أنه كان حلمًا.

- إنها القدم التي رأيناها البارحة.

- ماذا نفعل؟ ما الذي قررناه بالأمس؟

- ننتظر حتى يذوب الجليد تمامًا.

- حقًّا؟

- نعم. لأكون صريحًا، لم أوافقك الرأي لكن..

***

بعد عدة أيام، يكتشف العجوز القدم ويتفاجأ من جديد:

- إنها قدم!

ينفعل الكلب من نسيان العجوز ويصيح:

- أيمكنك أن تتوقف عن هذا؟ إنها القدم نفسها التي رأيناها منذ عدة أيام!

- لم يكن هذا حلمًا إذن!

- امنحني القوة أيها الرب!

- ماذا نفعل؟ ما الذي اتفقنا عليه؟

يقرر الكلب أن يستغل الموقف لصالحه هذه المرة فيقول:

- قررنا أن نحفر في الجليد لنستخرج باقي الجسد.

- حقًّا؟

- يمكنني أن أقسم أن هذا هو ما اتفقنا عليه.

- لا أعلم لكنه يبدو غريبًا أن هذا هو ما توصلنا إليه.

- حسنًا لكن ذلك ما اتفقنا عليه.

- شيء غريب. لن نتمكن أبدًا من استخراج باقي الجسد.

***

بعد عدة أيام، يفتح الكلب موضوع القدم من جديد للعجوز، فيرد:

- سننتظر حتى يذوب الجليد تمامًا. لن نستطيع فعل أي شيء للرجل فهو ميت، وقد تقطع جسده إلى أشلاء. كما أن الجليد لا يزال صلبًا للغاية وهناك العديد من الصخور بداخله، وإذا تسلقنا فوقه لنستخرج القدم، فهذا خطير. يمكنك أن تقف فوق جزء غير ثابت وتنزلق بالداخل. وإن بدأت بالحفر مستخدمًا كفيك، لن تصل إلى شيء، ستعثر على شيء آخر محشور بالداخل وستكون قد أذيت كفيك. كما أننا ضعيفان، لقد كان شتاءً طويلًا. الأفضل أن ننتظر.

تنقضي الأيام وكلاهما ينتظر بفارغ الصبر أن يذوب الثلج تمامًا. فمع كل فجر، عندما يتسرب شعاع شمس من خلال النافذة المتسخة وينبههما بحلول الصباح، يتركان الكوخ ليريا إن ذاب الجليد تمامًا أم لا.

ما زالت القدم بمكانها. جافة ومكدومة كشجرة هزيلة صعقها البرق. لم يعد الأمر جديدًا على العجوز، لكن في كل مرة يراها، يشعر كأنها ذكرى قديمة وبعيدة تعود إلى الحياة من جديد.

يسأل العجوز الكلب في مرة من المرات التي يذهبان فيها لتفحص القدم:

- كم من الوقت مر وتلك القدم بمكانها هكذا يا ترى؟

- هل تسألني؟

- نعم، برأيك كم من السنوات مرت؟

- سنوات؟ ماذا دهاك؟ لقد اكتشفناها منذ أسبوع!

على الرغم من أن الكلب لا يعرف كيف يعد الأيام لكنه يتكلم بثقة ويبدو

متأكدًا مما يقوله.

***

يسأل الكلب مرة ثانية في صباح أحد الأيام:

- علينا أن نفعل شيئًا، فرائحة تلك القدم تزداد وتصبح نفاذة أكثر كل يوم عن الذي قبله.

- لا أشم أي شيء.

- لكنني أشم رائحتها، وإن استطعت شمها، فهذا يعني أن باقي الحيوانات تشمها أيضًا.

- أي حيوانات؟

- الكلاب الأخرى. الحيوانات عمومًا. الطيور والذئاب. ألا تتذكر ما قاله صديقك، ذلك الحارس، كان يقول شيئًا عن ذئاب قريبة من هنا؟

- لا أعلم بشأن الذئاب. مَن صديقي هذا؟

- ماذا تعني بأنك لا تعلم! ألم ترَ واحدًا قطُّ؟ الأمر ليس بتلك الصعوبة. إما أن رأيت واحدًا من قبل أو لم ترَ واحدًا. أنا مثلًا رأيت ذئبًا من قبل. ليس بتلك المنطقة، رأيته بوادٍ آخر بعيد. لكن تلك الحيوانات تحب التحرك من مكان لآخر. وإن كنت قد رأيت ذئبًا هناك فيمكنني أن أرى واحدًا هنا، وإن رأيت واحدًا فهذا يعني أننا يمكن أن نصادف العشرات من الذئاب لأنها لا تتحرك إلا في جماعات.

ما إن يجد الكلب أي موضوع للحديث فإنه لا يتوقف عن الثرثرة أبدًا، بينما يكره العجوز الثرثرة ويصاب بالملل سريعًا.

- ألا تسكت أبدًا؟! لا توجد ذئاب هنا. سنراقب القدم خلال النهار، فليس لدينا أي شيء آخر لنفعله على أي حال.

- بالنهار فقط؟ اسمع يا صديقي، تلك الحيوانات التي نتكلم عنها تصطاد بالليل. هل تفهم ذلك؟

- أنا أنام بالمساء، هل ستقضي مساءك بالخارج لتراقبها؟

- لا. انتظر. ليس هذا ما قصدته!

يكلمه العجوز بلهجة حازمة ليستفزه:

- هل تريد أن تسهر بالخارج؟

يغير الكلب من نبرته ويستخدم نبرة متواضعة ويقول وهو يكاد يبكي:

- لا لا. هذا آخر شيء أريده.

***

يومًا بعد يوم، يذوب الجليد أكثر، ويكشف عن العديد من الصخور والحصى، كما يكشف عن العديد من الحوافر والقرون وجذوع الأشجار وفكوك وجماجم حيوانات لا تزال تحمل التعبير المرعب الذي كان على وجوهها قبل الموت.

يلتفت العجوز إلى الكلب بجانبه ويقول:

- كأنك تشاهد لحية وهي تنمو.

- كيف؟

- الشعر، تلك الكفوف والجماجم المبعثرة تشبه الشعر المتناثر فوق الذقن.

- أرى ذلك.

لكنه في الحقيقة لا يفهم ما يعنيه العجوز.

- أقصد شعر البشر.

- بالطبع بالطبع. هل يجب أن نذهب إلى القرية ونخبر أحدًا؟

- مثل مَن؟

- لا أعلم. بشر مثلك. الناس هناك.

يحدق العجوز أمامه إلى الطريق المنحدر الذي يؤدي إلى أسفل الوادي

ويمتلئ بالعديد من الحصى وجداول المياه التي لا تزال متجمدة ويقول:

- الأفضل أن ننتظر. لا يزال الجليد صلبًا، يمكن أن ننزلق.

- حسنًا لننتظر. لكن وجود القدم بالعراء هكذا يقلقني.

- لم يذب الجليد بعد. هل تريد أن تقتل نفسك في الطريق إلى القرية؟

***

بعد عدة أيام، يُفتح الموضوع من جديد.

- ألا تمتلك حذاء مخصصًا للجليد؟ يمكننا حينها أن نذهب إلى القرية بكل بساطة.

- لمَ العجلة؟ ألا تراه؟ إنه ميت وبوسعه أن ينتظر وسننتظر نحن أيضًا.

# 11



على الرغم من أشعة الشمس القوية التي تكاد تصيبهما بالعمى في كل مرة يخرجان فيها من الكوخ، فإن الجليد لم يذب بعد. وكل ما تفعله الحرارة هي أن تغير من شكل الجليد قليلًا حتى يبدو لمن يراه كأنه على وشك أن يذوب، لكنهما يفاجآن به في اليوم التالي متماسكًا وصلبًا.

تمر الأيام ولا يزال الجليد كما هو، ورغم ذلك، يذهب العجوز ليرى إن كان الجليد بالطريق الذي يؤدي إلى القرية قد ذاب أم لا، فيجده يلمع كقطعة رخام كبيرة تمتد بين الأشجار.

يُعلق الكلب:

- هل تعلم فيما أفكر؟ يمكننا أن نخبر الحارس الذي كان يأتي لرؤيتك بالخريف؟

يصارع العجوز لكي يسترجع ذكرياته عن الحارس ثم يقول:

- لم يكن يأتي ليراني، كان يتجسس عليّ.

- أيًا كان، لكنه الوحيد القادر على مساعدتنا، أليست تلك هي وظيفته؟ يمكنه أن يأتي بواحدة من تلك الأشياء الكبيرة التي تطير وتحلق فوق الجبال.. ماذا تسمونها؟

- مروحية.

- يمكنه أن يهبط بالمروحية هنا ثم نخبره بأمر القدم، وأنك أردت أن تخبر

أحدًا عندما رأيتها في الحال لكنك لم تستطع، وسيتولى هو الأمر.

يهز العجوز رأسه معترضًا على كلام الكلب ثم يهمس:

- سيظن أنني من فعلت ذلك بالرجل.

- ما هذا الذي تقوله؟ أنت تقتل ذلك الرجل! لن يأتي هذا أبدًا بباله! أبدًا.

يبقى العجوز صامتًا، فهو لا يتذكر أي شيء، فيرتاب الكلب من سكوته ويسأله:

- لم تقتله، أليس كذلك؟

يرد العجوز فورًا وبعصبية:

- نعم!

***

تثلج السماء من جديد كأن الشتاء لم ينتهِ، وتتغطى القدم بالثلج المتساقط حتى ينسى العجوز أمرها وأمر الرجل المحبوس داخل الكتلة الجليدية. ويعود ليتجول بحرية وبال هادئ وسط المروج، بينما كل ما يشغله هو ألا يغرق وسط الثلج.

يتبعه الكلب في هدوء، أحيانًا يجري ويسبقه ويختفي لمدة ثم يعود وفروه مغطى بالثلج.

يتوقف سقوط الثلج وتظهر القدم من جديد وهي تبدو مكدومة ومشوهة أكثر من ذي قبل، فيعود قلق العجوز وينشغل بأمرها وأمر الرجل الميت تحت الحصى والصخور والجليد من جديد.

يقول للكلب:

- علينا أن نخبر أحدًا بشأن تلك القدم.

ينبح الكلب في حماس:

- بالطبع! بالطبع! أنفعل ذلك الآن؟

- غدًا.

- لكنك قلت ذلك أول أمس!

- حقًا؟

عندما يذوب الثلج قليلًا وتتجلى ملامح الطريق المؤدي إلى القرية ويظهر الحصى والطين الذي يميزه، يقرر «فاراندولا» أن الوقت قد حان ليذهب إلى القرية ويخبر أحدًا بشأن تلك القدم. ينزلق بضع مرات وهو يسلك ذلك الطريق المنحدر ويصاب ببعض الكدمات بأسفل ظهره ويطلق الشتائم واللعنات في كل مرة يخطئ ويضع قدمه في موضع غير ثابت، وينزلق في أحد الجداول المتجمدة وتبتل قدماه بالماء الملطخ بالطين حتى ركبتيه. على النقيض، يستمتع الكلب بتلك الرحلة إلى القرية ويقضي رحلة ذهابه وهو يعدو ويتدحرج في سعادة فوق الجليد ويغطس أنفه بالطين من حين إلى آخر ثم يعتدل ويضحك ويعود ليتشمم الأرض مجددًا ليبحث عن مصدر الرائحة النتنة التي يشمها.



في منتصف الطريق إلى القرية، وعند أشجار الصنوبر، يفاجأ العجوز بإحدى الصخور الضخمة - والمحتمل أنها سقطت إثر أحد الانهيارات الصخرية - التي تقطع الطريق وتجعل من المستحيل عبوره إلى القرية. يحاول العجوز أن يبحث عن طريق آخر، فيجد طريقًا ضيقًا يمتد عبر أشجار الصنوبر لكنه منحدر للغاية، ويمكن أن يودي بحياته إن قرر أن يعبره، لذلك لا يرى أمامه حلًا سوى أن يعود أدراجه.

ينبح الكلب الذي يتابع العجوز:

- انتبه!

يجلس العجوز فوق الطين ليلتقط أنفاسه:

- من المستحيل أن نسلك ذلك الطريق. منحدر للغاية.

- هل أنت بخير؟

- لولا تلك الصخرة لكنا الآن بالقرية.

يتنهد الكلب متأسفًا فيحاول أن يرضيه العجوز:

- سنحاول مجددًا بعد بضعة أيام. لنعُد الآن، يمكننا أن نذهب ونلقي نظرة على القدم، هل رأيت شيئًا مثل هذا من قبل...؟

***

بعد عدة أيام، تُذوِّب حرارة الربيع العديد من التجمعات الثلجية وتعود الطرق إلى ما كانت عليه. يستيقظ العجوز قبل الفجر ويسلك أحد الطرق التي ذاب الجليد فيها ليذهب إلى القرية، ويجد نفسه قد وصل بسهولة إلى الأراضي الزراعية على أطراف القرية.

يخيم على البيوت ظل الجبال العالية المحيطة ويجعل شكلها يبدو كئيبًا، فغالبًا ما تبعث الشمس بأشعتها فوق القرية بأواخر مارس وليس قبل ذلك الوقت. ينظر العجوز حوله ويشعر أن البيوت تبدو مهجورة ويحاول أن يخمن تاريخ اليوم، لكن ذاكرته لا تسعفه كالعادة، فيسأل الكلب:

- في أي يوم نحن؟

- وكيف لي أن أعرف؟ نحن اليوم!

يتبع الكلب صاحبه وهو يتشمم كل شيء يصادفه بشغف، وعندما يصلان إلى المتجر الذي يعرفه العجوز، يفاجأ بالمتجر مغلقًا.

ينادي السيدةَ التي يعرفها، لكن لا أحد يجيبه، فيدق على الباب بقوة كأنه سيقتلعه. يبدأ الكلب في النباح عندما يرى أن محاولات صديقه لا تجدي نفعًا ولا يعرف أن نباحه ذلك عديم الفائدة، فالقرية مليئة بالكلاب التي تنبح في كل الأوقات بدون سبب حتى اعتاد السكان أصواتها ولم تعد تثير انتباههم.

بعد مدة من الدق، تظهر السيدة التي تقف بالمتجر من النافذة فوقه وهي متفاجئة ويبدو على وجهها النعاس وتقول:

- أهذا أنت؟ ما المشكلة؟

يخجل العجوز عندما تظهر السيدة ولا يعرف بماذا عليه أن يرد.

- صباح الخير!

- هل تعلم ما الوقت الآن؟

- لا.

- هل تعلم بأي يوم نحن؟

- لا، لكن..

تختفي السيدة من النافذة وتغلقها وراءها، يشعر العجوز بالإحراج وخيبة الأمل ويتأهب للعودة إلى الجبل، فتظهر السيدة فجأة وهي تفتح له باب المتجر قليلًا وتكلمه من ورائه.

- يجب ألا تفاجئني بهذا الشكل. تعالَ لكن اترك الكلب بالخارج.

يشكرها العجوز وينظر إلى الكلب، فيفهم أن عليه البقاء بالخارج. يخلع العجوز قبعته ويحني رأسه وهو يمر من باب المتجر ويتعمد أن يثبت نظراته على الأرض، فقد لمح السيدة ترتدي رداء نوم وفكر أنها ربما تكون عارية تمامًا من أسفله، لذلك وجد من الأفضل ألا ينظر إليها. يخطر بباله فجأة أن لا بد أن اليوم يوم الأحد ويؤنب نفسه على عدم ملاحظة الأمر مبكرًا.

تحثه السيدة على الكلام وتنظر إليه بوجه ثابت لا يتحرك وتقول:

- حسنًا؟

- حسنًا؟

- هل نفد كل ما اشتريته؟ ماذا تريد بالتحديد؟

- في الحقيقة لقد جئت لكي..

تنظر إليه السيدة منتظرة أن يكمل كلامه.

- حسنًا أحتاج إلى أشياء كثيرة، لكنني جئت من أجل شيء آخر.. لقد رأيت...

يصارع العجوز لكي يجد الكلمات المناسبة. دائمًا ما تهرب منه الكلمات في أي موقف يشعر فيه بالخجل، وينتهي به الأمر بوضوح الصورة برأسه عما يريد أن يقول، لكن بدون كلمات ليعبر عنها.

- ماذا رأيت؟

- قدمًا.

يرتعش أحد خدي السيدة من المفاجأة. ثم تكرر لكي تتأكد مما سمعته:

- قدم؟

- نعم قدم، قدم إنسان.

- حسنًا.

- كانت في الجليد.

- هل تعني آثار قدم على الجليد؟

- لا لا. رأيت قدمًا تبرز من الجليد.

تستمع إليه السيدة ونظراتها مثبتة عليه ويداها متشابكتان فوق جسدها وفمها مغلق وتحاول أن تكتم تثاؤبًا. ثم تقول:

- حادثة؟

- نعم أظن أنها حادثة.

- أتعني أن أحدًا ما تأذى؟

- إنه ميت.

- هل أنت متأكد؟

- نعم، لم أرَ تلك القدم تتحرك قَطُّ.

يفضل ألا يذكر أنه رأى القدم تهتز عدة مرات كأنها تلوح له وأنه سمع أصوات الأصابع المثنية وهي تتكسر.

- هل أتيت لإخباري بذلك؟

- لا أعرف أحدًا آخر هنا بالقرية.

- لمَ لا تذهب إلى مركز الشرطة وتوقظ أحد الضباط من نومهم وتخبرهم بتلك القصة؟ مع أنني لا أظن أن بيوم الأحد..

يلوح العجوز بيديه في الهواء ليبدي اعتراضه.

- بلى، لا بد أن تذهب، كلما قلبت الموضوع برأسي، رأيت أنه الحل الأنسب، هكذا يمكنك أن تبلغ عن اختفاء أحدهم..

- لكنني لا أريد أن أبلغ عن اختفاء شخص ما، أنا أتكلم عن قدم اكتشفتها!

- إنه الشيء نفسه، ربما لديهم قائمة بأسماء أشخاص اختفوا ولم يعثر عليهم أحد. لكن هل أنت متأكد مما رأيته؟

يسعل العجوز ليزيل الحشرجة بحلقه، ويشعر بالتردد فجأة كأنه بدأ ينسى لِمَ هو هنا.

تستعجله السيدة في الرد:

- هل أنت متأكد؟

- من ماذا؟

- ما الذي رأيته بالتحديد؟

- أين؟

- بالثلج! القدم!

- القدم! هل رأيتِها أيضًا؟

- لا أنت رأيتها، ماذا بك؟ تذكر!

تتسلل ابتسامة صغيرة من العجوز لا يعرف سببها وفور أن تراها السيدة، تترجم كل تلك المحادثة على أنها دعابة من دعاباته، فتصيح بعصبية:

- هذا مسلٍ للغاية! أهذه دعابة من دعاباتك؟! ربما ينبغي لي أنا أن أتصل

بالشرطة!

***

يسأل العجوز الكلب وهما يصعدان الطريق المنحدر في طريقهما إلى الكوخ:

- لماذا لم تساعدني عندما كنت أتكلم مع السيدة؟ كنا سنتمكن حينها من شرح الموضوع جيدًا.

- حسنًا، أنا آسف، لكنني كنت بالخارج ولم أسمع ما قلته.

- هراء! كان بإمكانك أن تساعدني، لقد جعلت من نفسي مغفلًا أمامها.

- لا تنسَ أنني كلب والبشر غير معتادين سماع الكلاب تتكلم!

لكي يلطف الأجواء ويهدئ من غضب السيدة، رأى العجوز أن من الأفضل ألا يغادر دون أن يشتري شيئًا، فاشترى الخبز وزجاجتين من النبيذ وشرائح اللحم والآن تتأرجح داخل حقيبة ظهره المقطعة.

يردف العجوز بانزعاج:

- على أي حال لم تصدقني.

- كان هذا متوقعًا، ماذا قالت لك؟

- قالت شيئًا بشأن الذهاب إلى الشرطة.

- ثم؟

- لم أذهب بالطبع.

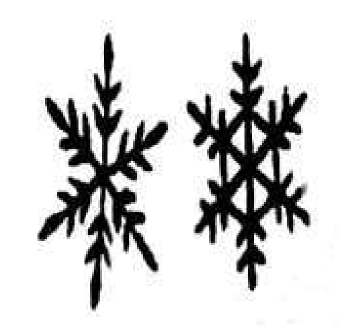
يتوقف كلاهما عن الكلام لبرهة ليركزا في صعود الممر الوعر أمامهما.

- لن أذهب إلى الشرطة، يمكنهم أن يأتوا إليّ إن أرادوا أن يعرفوا شيئًا.

- ربما ستذهب السيدة إليهم وتخبرهم.

يفكر العجوز بهذا الاحتمال لكن يراه غير مرجح، فهي لم تصدقه من الأساس وكل ما أرادته هو أن تعود إلى النوم من جديد، إلى الفراش والدفء،

وربما إلى حبيبها.



# 12



يسأل «فاراندولا" الكلب في مساء ذلك اليوم:

- هل تعاني دوار الأماكن المرتفعة؟

تنتبه أذنا الكلب وتقفان ويسأل:

- لماذا؟

- لا شيء.

يبدأ الكلب في القفز حوله من فرط الحماس ويسأله:

- هل سنذهب إلى مكان ما؟ إلى أين سنذهب؟

يندم العجوز على سؤاله، فسيتخذ الكلب من هذا السؤال فرصة ليبدأ في الثرثرة.

مع اقتراب الربيع، على العجوز أن يبدأ في التفكير بالانتقال إلى أعلى الجبل حيث الكوخ الصيفي، فبذلك المكان، يتخلص من السياح المتطفلين الذين يعج بهم الوادي في فصلي الربيع والصيف.

- حسنًا، سيتعين عليّ قريبًا أن أنتقل إلى أعلى الجبل.

- ماذا تقصد بأن تنتقل إلى أعلى الجبل، نحن بأعلى الجبل!

- إلى مكان أعلى من هذا.

- لماذا؟

- لأنعم بالسلام.

يطلق الكلب زمجرة ولا يعرف ماذا يقول ثم يسأله في حيرة:

- ألا يعجبك هذا المكان؟ ألا تشعر بالراحة هنا؟

يخبره العجوز بشأن السياح الذين يأتون إلى الوادي في فصل الربيع ويتطفلون عليه، لكن الكلب لا يهتم بمثل تلك الأمور، كما أن مسألة السياح تلك تصب في صالحه، فوجود السياح هنا يعني تذوق العديد من بقايا الطعام التي لم يتذوقاها من قبل.

لكي يضمن العجوز ألا يعكر أحد صفو عزلته، ينتقل في كل صيف إلى أعلى الجبل حيث كوخ قديم ومتداعٍ، تعوّد أن يمكث به في فصل الصيف على الرغم من أنه لا يتسع له فيه أن ينام ممددًا جسده، ولا يتوفر به فراش كالكوخ الشتوي، بل ينام فوق العديد من البطاطين القديمة. يستقر الكوخ فوق جرف عالٍ ويطل على ممر جبلي كان يستخدمه المهربون قديمًا ويمر بين منحدرات من الحصى والصخور المفتتة. في ذلك المكان، ينعم «فاراندولا» بالسلام، فمن الصعب لأي شخص أن يصل إلى ذلك الكوخ وإن حدث هذا وتجرأ أحد ودق بابه، يرميه العجوز على الفور بالحصى.

يغطي الكوخ ألواح معدنية رقيقة من الخارج، وعندما تهب الرياح وتتسرب من بين التصدعات بتلك الألواح، يهتز الكوخ بأكمله حتى تتداعى بعض تلك الألواح وتسقط من أعلى الجرف.

يشرح للكلب كل هذا بطريقته الخاصة، فيرد عليه الكلب:

- مثلما تحب، لم أعد أحاول أن أفهمك، لكن ستأخذني معك، أليس كذلك؟

- إلا إذا كنت تصاب بالدوار، فالمكان هناك عالٍ جدًا.

- لا تقلق بشأن تلك المسألة. في النهاية، أنا كلب، وكل ما أفعله هو أن أتشمم الأشياء لا أكثر ولا أقل.

- حسنًا، في هذه الحالة يمكن أن آخذك معي.

في كوخه الصيفي، لا ينعم العجوز بالدفء وحرارة الشمس التي يستمتع بهما الآن، بل أحيانًا تثلج السماء كما لو أنه بفصل الشتاء. لكن كل ما يهمه هو ألا يزعجه أو يتطفل عليه أحد وهذا ما يضمنه له ذلك المكان. فعلى عكس الكوخ الشتوي، لن يتفاجأ بمن يدقون عليه الباب ليسألوا إن كان يبيع الأجبان أو العسل. فلا يمكن لأحد أن يتبين الكوخ من الأساس لأن جدرانه تشبه لون الصخور التي تحيط به. كما أنه عادة لا يظهر من خلف السحب العديدة التي تغطي قمة الجبل؛ حتى الخرائط لم تعد تشير إلى الممر الوعر الذي يؤدي إلى ذلك الكوخ. وليصل إليه أي شخص، لا بد أن يتبع تعليمات السكان القدامى للقرية، فوحدهم من يعرفونه. حتى إن عثر عليه أحدهم بالمصادفة، فليس فيه أي شيء يجذب السياح لأنه لا يطل إلا على المنحدرات الخطرة المليئة بالحصى والأحجار التي نمت عليها الطحالب والفطريات، وحوله لا يوجد سوى العديد من فوهات البراكين الجافة والتي أصبحت بركًا تتجمع فيها مياه سوداء اللون ومتعفنة.

يتكلم العجوز ثانية بعد برهة:

- على كل حال، لا يأخذ المكان هناك أكثر من فرد.

- هل غيرت رأيك؟

- أعلمك بالأمر فقط.

- لكنني كلب ويكفي أنه منذ معرفتي بك، فقدت نصف وزني، فكيف لي أن أشغل مساحة كبيرة؟

- سنرى.

- ما الذي ستراه؟

- سأفكر بالأمر، ربما من الأفضل أن أتركك هنا.

ترتسم على وجه الكلب ملامح الخوف والقلق، ويطلق عواءً خافتًا رغمًا عنه وهو يقول:

- لا تقل ذلك أرجوك!

يقهقه العجوز عندما يرى وجه الكلب. لم يضحك بهذا الشكل منذ سنوات، لكن ذلك الكلب دائمًا ما يضحكه، وأحيانًا يتعمد مشاكسته لكي يضحك على ردود أفعاله. سيأخذه معه إلى الكوخ لكنه يفكر في أن يبقيه بالخارج ليشاهده وهو يحاول أن يستقر فوق الجرف العالي ذي الصخور الهشة المتداعية ليضحك عليه.

***

لطالما أحب العجوز شعور الدوار الذي يصاحب النظر إلى أسفل من أعلى الجرف والمرتفعات. يحب الاستمتاع بالرياح وهي تصطدم بجسده ومشاهدة الوادي وهو يتمدد أمامه فيرى بعض البقاع التي لم يرها من قبل، كما أنه يحب ذلك الشعور بالخواء الذي يصاحب إحساسه بالدوار حيث يشعر كما لو أن شيئًا يعتصر خصيتيه.

لكي يشعر بكل تلك الأحاسيس، كل ما عليه فعله هو أن يخرج رأسه من نافذة الكوخ التي تطل مباشرة على الجرف. حينها يشعر بأن يدًا خفية تمسك بخصيتيه بعنف، بينما تقرصه يد أخرى عند حلمتيه. يشعر في تلك اللحظة بالحيوية وأنه ما زال على قيد الحياة، ويكتشف جسده أحاسيس لم يشعر بها منذ سنوات وأماكن نسي تمامًا أنها موجودة بجسده. أماكن لا يتذكرها عادة إلا عندما يشعر بالحكة بها، حتى حينها لا تثير به تلك الأحاسيس.

لو كانت ذاكرته سليمة، كان سيتذكر أحاسيس مشابهة لطالما شعر بها وهو طفل. فقد تعود هو والأطفال من القرى المجاورة أن يُجروا مسابقات فيما بينهم ليروا من سيمسك بالسياج الكهربائي الذي يطوق حقول الأبقار لأطول وقت ممكن. لم يكن «فاراندولا" من الأطفال الذين يفلتون أيديهم بسرعة بل كان يتشبث بها لأطول وقت ممكن حتى لا يسخر منه الآخرون، كان بمجرد أن يمسك بالسياج ويسري التيار بيديه وجسده، يشعر كأنه يتلقى مئات الإبر التي توخزه في الوقت نفسه. وكلما زادت المدة، تحول الشعور بالتيار الكهربائي في جسده ليشبه شعوره بتلقي اللكمات في عينيه وفكه، ثم يشعر

كما لو أنه على وشك أن يفقد وعيه، حينها فقط كان يرتمي على الأرض وهو ينظر إلى كفيه المحروقتين المسودتين.

كان مقتنعًا وقتها أن جدارته وتفوقه على أصحابه يرجعان إلى كابلات الكهرباء وطنينها الذي كان يقود جميع من بقريته حتى الماشية إلى الجنون. كان متأكدًا أن ذلك هو السبب، وأمده اعتقاده هذا بالقوة، وهو ما جعله يتميز عن بقية الأولاد في تلك المسابقات.

***

عندما توقظ رائحة الجثث الغربان من مكب النفايات أسفل الوادي وتجذبها إليها، يضطر العجوز إلى أن يضحي بإحدى بطانياته ليغطي بها القدم حتى لا تقترب منها. تأتي الغربان قبل فجر كل يوم لتلتهم أشلاء الحيوانات التي تظهر من أسفل الثلج وتقضي ساعات وهي تتشاجر فيما بينها على بعض القطع الصغيرة، وكأنه لا يوجد العديد من الجثث الكافية.

عندما يسمع العجوز صوتها العالي المزعج قبل أن تصل، يصرخ بازدراء:

- وصلت الغربان اللعينة!

لا تهتم الغربان بالرد عليه، فكل ما تفعله هو أن تتشاجر مع بعضها بمناقيرها، وتقضي الوقت بالانتقال من جثة إلى أخرى قبل أن تطير وهي تحمل بعض الأجزاء لتأكلها فيما بعد والتي تقع منها بالنهاية فتضحك على أنفسها كالمغفلين.

عندما يسمعها الكلب، ينبح بامتعاض:

- وصلت الغربان.

في البداية، تفي البطانية بالغرض وتنجح في إخفاء القدم، لكن سرعان ما تعرف الغربان كيف تزيحها بمناقيرها، لذلك يذهب العجوز ويثبتها في الثلج بمسامير ويضع فوق البطانية بعض الصخور الثقيلة حتى لا تستطيع الغربان إزالتها مرة أخرى.

يكلمها العجوز:

- افعلوا ما يحلو لكم مع باقي الحيوانات، لكن اتركوا ذلك الرجل وشأنه.

يرد عليه أحد الغربان:

- لماذا تهتم به؟ لم يعد رجلًا، فهو مقطع إلى أشلاء!

- لا يزال رجلًا.

يعلق غراب آخر:

- لكن رائحته لا تقاوم، ألا تشمها؟

يهمس الكلب للعجوز:

- هذا ما قلته لك بشأن الرائحة، بالطبع تشمها، رائحتها قوية!

يجلس العجوز بالخارج لكي يراقب الغربان وهي تتجادل مع بعضها على الجثث التي تملأ الأرض حول الكوخ، فلم يعد يهمه تلك الجثث بعد أن جلب ما ينقصه من القرية آخر مرة. وفي كل مرة يراها تقترب من القدم، يقذفها بالحجارة ويصرخ فيها:



- ما الذي قلته لكم أيها الأوغاد؟

***

بعد مرور عدة أسابيع، تصبح الكتلة الثلجية أقل صلابة بفضل أشعة الشمس ويتدفق من أسفلها المياه والتي تندفع بسرعة في خطوط كأنها جداول صغيرة باتجاه أسفل الوادي نحو المراعي والأراضي المليئة بالحصى. تختفي تلك الجداول في بعض الفجوات بالجليد ثم تظهر مجددًا. يخيف شكل المياه المندفعة الكلب ويظنها كائنًا حيًا يتحرك نحوه فيبدأ بالنباح ليخيفها هو الآخر.

- لماذا تنبح الآن؟

يشير برأسه إلى المياه المتدفقة:

- ألا ترى هذا الشيء؟

- إنها مجرد مياه!

- مياه؟

- نعم.

- لم أكن أعرف.

يفكر العجوز: «يا له من كلب غبي». لكن المياه تبدو حقًا كحيوان يتحرك. فالطريقة التي تتدفق بها نحو الوادي الرئيسي تجعل من يراها يشعر كما لو أنها تهرب من شيء ما. في مساء يوم ما، عندما تبتعد الغربان، يتسلق العجوز الكتلة الثلجية ويقترب من المكان الذي ثبت به البطانية ويزيحها بعيدًا ليرى أمامه الساق بأكملها.

- لقد أوشكنا أن نعرف قريبًا من هذا الرجل.

يسأله الكلب وهو ينزل من فوق الكتلة الجليدية:

- هل رأيت شيئًا؟

يتجاهله العجوز ويذهب إلى الكوخ ويغلق الباب خلفه تاركًا الكلب بالخارج ولا يفتح له إلا عندما يسمعه يبكي ويخدش الباب.

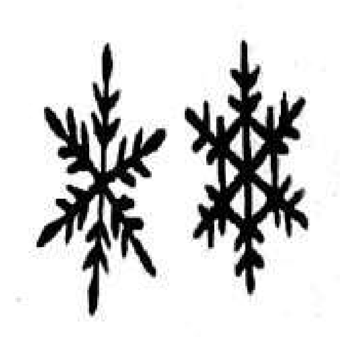
***

في صباح اليوم التالي، يتسلق العجوز الكتلة الثلجية مجددًا ويزيل البطانية. يتمعن في القدم العارية المعوجة أمامه والفخذ الهزيلة وأخمص القدم الذي جف وتشقق من الصقيع ويفكر: "هل باقي الجسد عارٍ أيضًا؟ ولماذا هو عارٍ بهذا الشكل؟".

يُضيق العجوز عينيه حتى يرى القدم بوضوح أكثر، فيتبين نملة صغيرة سوداء - أكثر أنواع النمل صلابة - فوق ظفر إحدى الأصابع. يحدق إليها مدة، فتلتفت إليه ثم تذهب وتختفي خلف أحد التشققات ببطن القدم ثم تظهر مجددًا. تلتقي النملة نملة أخرى ويراهما وهما تتكلمان لكن لا يتمكن من

سماعهما بسبب حجمهما الصغير. يراهما تفترقان بعد أن تودعا بعضهما، ثم يتبين نملتين أخريين تحاولان أن تتسلقا بطن القدم ثم تظهر ثلاث أخرى من خلف التشققات بأخمص القدم. تصطف بصف واحد وتتجه إلى أحد الجروح العميقة، والتي تسببت فيها الكتلة الجليدية بلا شك، لتتفحصها. تدخل إلى الجرح ثم تخرج مجددًا. لا يستطيع العجوز من موقعه أن يرى إن كانت النملات تحمل أي شيء فوق ظهورها أم لا. إن كانت تحمل طعامًا، فلا بد أن تكون قطعًا دقيقة للغاية والتي ستفي بالغرض بالتأكيد وتخفف جوعها. يقرب العجوز وجهه من القدم ليتأكد إن كانت النملات تحمل شيئًا، فينتبه لرائحة القدم القوية لأول مرة، ثم يتمتم عندما يلاحظ أعداد النملات التي تتزايد فوق القدم:

- من أين تأتي؟



# 13



بمرور الأيام، تذيب الحرارة أكثر الكتل الجليدية صلابة، فيتدفق من أسفلها العديد من الجداول المائية الصغيرة التي تندفع إلى الأسفل نحو الوادي وهي تختلط بالطين والوسخ. يكشف الجليد أخيرًا عن ساق الرجل بأكملها، ويلتصق بها بعض قطع القماش الممزقة والتي لا بد أنها كانت سروالًا، لكن الكتلة الجليدية مزقته إلى قطع صغيرة كما أنها بالتأكيد قد ألقت بالحذاء والجوربين بعيدًا. بعد أن ظهرت الساق بأكملها الآن، تبدو أحيانًا للعجوز كما لو أنها تلوح له، لكنها في الحقيقة تبدو كجذع شجرة ضعيف وهزيل تعج ثناياها بالنملات التي لا تتركها أبدًا كأنها تحرسها.

يبادر الكلب بالحديث وهو ينظر بتمعن إلى القدم بدون أي تعبير على وجهه:

- تجعلك تفكر، أليس كذلك؟

- بشأن ماذا؟

- الحياة.

- لكنه ميت.

- أعلم ذلك، ما أقصده هو.. آه. لا تهتم، كأنني لم أتكلم.

لا يرد العجوز على الكلب، فهو يفكر في المؤن التي نفدت، وأنه سيتعين عليه أن يستخرج بعض أشلاء الحيوانات الصالحة للطعام من الثلج كما كان يفعل بأول الربيع. ما زال هناك العديد من الجثث؛ الظباء التي لا تزال وجهها

يحمل تعبير الصدمة، والماعز الجبلي الذي لم يستطع تفادي الانهيار الجليدي في الوقت المناسب، والطيور الجبلية التي فقدت معالمها ولا يميزها سوى الريش. ستفي تلك الحيوانات بسد جوعه هو والكلب، فليس لديه أي نية أن يذهب مجددًا إلى القرية بعد ما حدث آخر مرة. بعض الأشلاء لا تزال طازجة، حتى الأشلاء التي فسدت وتعفنت يمكن أن تفي بالغرض. فما على العجوز إلا أن يطهوها جيدًا ويحاول ألا يشم رائحتها وهو يدخلها بفمه. عندما يرى الكلب صاحبه وهو يتجه نحو الثلج، يفهم ما الذي يفكر فيه ويسأله:

- ذلك أفضل من الذهاب إلى الصيد، أليس كذلك؟

- لدينا ما يكفينا لفصل الصيف.

- لن يتعين عليك أن تأكلني إذن.

- ولماذا سآكلك؟

***

انظر جيدًا. هذا هو البطن، منتفخ كأنه مات غريقًا. ثم ها هو الصدر، سحق للداخل من تأثير الكتلة الجليدية. ثم لدينا هنا اليدان والأصابع المعوجة، توجد بعض الأصابع التي قد بُترت تمامًا وبعضها بتر حتى منتصفها. ثم هناك المعصمان والساعدان الملتويان.

هاتان هما الكتفان، وهذا جزء من الرأس. ثم لدينا هنا الفم المفتوح والفجوتان المسودتان للعينين. أصبح الوجه مسطحًا من قوة الانهيار الجليدي وتقعرت جبهة الرجل، كما أن هناك ثلاثة ثقوب صغيرة فوق العينين مباشرة.

يُعلق الكلب:

- يا له من منظر!

- ماذا تتوقع؟ فالحيوانات التي نطهوها كانت بالحالة نفسها.

- هل تعرفه؟

- كيف لي أن أعرف؟ هل تعرفه أنت؟

- لا أظن ذلك، هل يمكنني أن أتشممه؟

يقترب الكلب من الجثة التي أمامه بحرص حتى لا يضع قدمه في مكان خطأ ويغرق في الثلج. يقرب أنفه منها ويستنشق الرائحة جيدًا، ثم يقول:

- لا أعلم. كل ما أشمه هو.. رائحة تشبه..

يهز العجوز رأسه باستخفاف ويضحك خلسة على عدم جدارة الكلب.

يسأل الكلب العجوز بعدما يبتعد عن الكتلة الثلجية ويقف فوق العشب:

- ما تلك الثقوب؟

لقد لاحظ الثقوب فوق عينيْ الرجل أيضًا وشعر أنها ليست بفعل الانهيار الجليدي. فالانهيارات الجليدية إما أن تسحقك أو تقطعك إلى أجزاء أو تتركك سليمًا، لكنها لا تحدِث مثل تلك الثقوب الصغيرة أبدًا.

***

بعد مدة من الوقت، يعود الاثنان من جديد ليُلقيا نظرة على الجسد الذي يبرز بأكمله الآن من الجليد. يحدقان إلى الوجه المسحوق والثقوب أعلى العينين.

يقول الكلب:

- من المحتمل أن يكون قد تلقى رصاصات بالرأس وهي التي أحدثت تلك الثقوب.

- يمكن أن تكون لعدة أسباب.

- كلما نظرت إلى ذلك الرجل أكثر، ذكرني بذلك الحارس اللطيف الذي اعتاد أن يأتي لزيارتك بالخريف. انظر إلى تلك القطع الممزقة، ألا تشبه الزي الذي كان يرتديه؟

مزقت الكتلة الجليدية الملابس إلى قطع متفرقة وغيرت ملامحها، حتى

أصبح من المستحيل لأحد أن يجزم إن كانت تلك القطع المبللة بالماء والطين تكوّن زيًا ما في يوم من الأيام. لكن الكلب يصر على أن ذلك الرجل هو الحارس وأن ذلك هو الزي الذي اعتاد أن يرتديه، ويعزز إصراره هذا بنباح حاد يوقفه العجوز بركلات من قدمه.

يقرر العجوز ذات صباح أنه يجب أن يستخرج الجثة من الجليد ويخفيها بمكان ما سواء كان ذلك الرجل هو الحارس أم لا. لأول مرة يستطيع رؤية الأمر من جميع جوانبه ويستوعب خطورة موقفه، كما أنه حلم بشيء غريب في ذلك اليوم. حلم أن الرجل الميت جاء إلى الكوخ وظل يتبعه إلى كل مكان يذهب إليه، تمامًا مثلما يفعل الكلب.

حاول العجوز في الحلم أن يبعده عنه وظل يردد: "اذهب بعيدًا»، لكن الجثة لم تتحرك بل تتعقبه بخفة من مكان إلى مكان، وأحيانًا كانت تختفي لتفاجئه وتظهر مرة واحدة. لم يكن الرجل يرتدي ملابسه كاملة وكانت بشرته سوداء والنمل يغطي أطرافه بالكامل، ووجهه مسحوق إلى الداخل، ومع ذلك ظهرت الثقوب فوق جبهته بوضوح.

يسأل الكلب باستغراب عندما يلاحظ أن صاحبه على وشك أن يفعل نشاطًا غير مألوف:

- ما هذا؟ ما الذي تفعله؟

- اذهب بعيدًا!

يذكره الكلب بالحلم الذي حلمه والجثة التي ظلت ملتصقة به.

ينصرف الكلب وهو يشعر بالإهانة ويتمتم:

- يا له من تصرُّف مهذب!

يذهب «فاراندولا» إلى الإسطبل ويأخذ مجرفة وحبلًا سميكًا ويتجه لإزالة بقايا الجليد التي ستعيقه عند استخراج الجثة. كان قد توقف منذ أيام عن تغطية الجثة بالبطانية واستغلت الغربان والصقور ذلك فتأتي قبل الفجر لتستمتع بمذاقها قبل وصول باقي الحيوانات. مَن يصل أولًا ينقض على

الجثة بحماس لكن عليها أن تتشاجر مع مَن أقوى منها وتريد الاستيلاء على الجثة بالكامل. فتوكزها بمناقيرها وتحاول بشتى الطرق أن تشتت انتباهها حتى تنصرف عن الجثة. أما مَن تصل متأخرة فتحلق فوق الجثة منتظرة أن تنهك باقي الطيور، ينتظر بعيدًا ذئبان نحيفان بصبر حتى تنصرف الطيور وتسنح لهما الفرصة بالاستمتاع بالعظم.

يحاول العجوز إبعادها بالصراخ والحجارة ثم يتسلق بصعوبة ما تبقى من الكتلة الجليدية وينحني فوق الجثة التي ملأتها الطيور بالتجاويف. تغير شكل الجثة قليلًا بسبب الحيوانات التي تأتي كل يوم وتتغذى عليها، وأصبح كل طرف من أطراف الجثة باتجاه وكأن كل طرف يحاول الهروب، ويوحي منظرها هكذا كما لو أنها تتمنى أن تُلقى بالجحيم وتتخلص من عذابها هنا وسط الجليد والحصى والحيوانات.

يتمتم للجثة:

- ها أنت.

قالها العجوز بمجرد أن حرر الجثة من وسط الثلج والحصى بالجاروف وأخذ يربطها بالحبل ثم يربط الحبل بنفسه هو الآخر ممررًا إياه من أسفل إبطيه. ينزل العجوز إلى البركة التي تجمعت من ذوبان الجليد أسفل الكتلة الجليدية وهو يجر الجثة خلفه. عندما ترى الطيور ذلك المشهد، تطارد العجوز وتتجمع حوله وتحاول إيقافه بأن تضرب بأجنحتها بالقرب من وجهه وتوكزه بمناقيرها وهي متذمرة.

لا يشعر العجوز أن ذلك الرجل هو الحارس، فهو لا يشبهه، ولا يشبه أي إنسان، بل يبدو كبقايا أحد الأشجار التي تنمو وتنجو وسط المنحدرات الصخرية القاحلة بسبب جذورها الطويلة المنثنية، وقد أوقعتها الرياح وأفقدتها ملامحها.

يسأله الكلب الذي قد نسى الإهانة الآن:

- إلى أين تأخذ صديقنا؟

- بعيدًا عن هنا.

- أرى ذلك لكن إلى أين؟

- ليس من شأنك.

- إلى الكوخ الصيفي؟

- ما هذا الهراء الذي تقوله؟

يحاول «فاراندولا» أن يركز على فكرة معينة برأسه، فكرة يظل يرددها لنفسه بلا توقف حتى لا ينساها. سوف يجر الجثة إلى منجم المنجنيز القديم ويلقيها به ويدفعها إلى الداخل إلى أبعد ما يكون حتى لا يراها أحد. تبدو له فكرة جيدة ويرى أن ذلك أفضل حل. فحتى الطيور لن تستطيع أن تصل إليها، وحدها الديدان هي التي ستتغذى على لحمها وعظامها. يتذكر العجوز الديدان القشرية التي كان يعج بها المنجم وشعر بالطمأنية، فسوف تلتهم تلك الديدان الجثة حتى تخفيها تمامًا.

تصرخ الغربان في العجوز:

- إلى أين تذهب بحق الجحيم؟

يتجاهلها العجوز ويمضي في طريقه. يسلك الطريق الذي يؤدي إلى المنجم وبينما يحاول صعود الأرض المنحدرة، تنزلق بعض الصخور من مكانها فتجعل الطريق أكثر خطورة.

عندما يصبح الصعود صعبًا، يتمسك بالعشب الطويل الذي ينمو بين الحصى ليساعده ويشد نفسه إلى أعلى.

يتبعه الكلب في صمت، فقد شعر أن موقفهما هذا لا يتحمل الثرثرة، لذلك يبقى صامتًا ويعود ليلعب دور الصديق الحميم الذي يقدر ما يمر به صديقه، ويقضي الوقت وهو يتشمم كل شيء حوله ويعطس في سعادة.

***

يتكلم الكلب في النهاية، فلم يستطع أن يبقى صامتًا كل هذا الوقت:

- لماذا تفعل هذا؟ ألم نتفق على أن نخبر أحدهم؟

- يجب ألا نخبر أي شخص.

يجلس العجوز على أحد الصخور لكي يستريح ويهيئ نفسه للطريق الوعر الذي سوف يسلكه.

- لكننا ذهبنا إلى القرية وأخبرنا السيدة بالمتجر، كان ذلك بالأسبوع الماضي.

- حقًّا؟

- نعم!

- لا أتذكر ذلك.

- لقد فعلنا ذلك وأخبرتك أن تذهب إلى الشرطة.

- وهل فعلت ذلك؟

- لا لم تذهب.

- جيد. هل صدقتني السيدة؟

- لا أعلم. أعتقد أنها ظنت أنك فقدت عقلك.

ما زال يحلق بالقرب منهما طائران عنيدان يرفضان أن يتركا الجثة وشأنها ويسألان الكلب:

- ما الذي يفعله ذلك المغفل، إلى أين يأخذها؟

- ليس من شأنكما!

يصرخ الطائران في الكلب:

- نحن نكلمك أيها المغفل!

يتحرك الكلب فجأة ويتظاهر أنه يعض شيئًا ليخيفهما ثم يقول في النهاية:

- انظرا! أنا لا أعلم شيئًا مثلكما تمامًا، لكنه سيأخذها بعيدًا عنكما وبعيدًا عن

أي شخص.

- ما هذا الهراء؟!

- على كل حال، فهو يستحق أن يدفن.

- يا لها من خسارة! سيعطيها للحيوانات التي تعيش تحت الأرض.

- هكذا هو الأمر، الآن من فضلكما ابتعدا.

- يا لك من عبد! اذهب إلى الجحيم!

لم يشترك العجوز في تلك المشاحنة، كان يفكر في شيء آخر. كلما يفكر بالأمر، يتذكر أنه مَن أطلق الرصاص على ذلك الرجل بين عينيه. يجهد نفسه ليمحو تلك الذكرى من ذاكرته - التي لا تستحق أن يطلق عليها ذاكرة - ويستطيع أخيرًا أن يتذكر بعض اللقطات. لا يعلم إن كان ما يتذكره ذلك حدث حقًا أم أنها مجرد لقطات من وحي خياله، فأحيانًا يمر بمواقف يشعر أنه قد مر بها من قبل، وينظر إلى كل شيء حوله مشدوهًا، غير قادر على أن يحدد متى وأين مر بذلك الموقف ويظل في حالة من الحيرة تكاد تفقده عقله؛ هل مر بذلك الموقف حقًا أم تخيله في رأسه بكل تفاصيله؟ لا يعلم إن كانت تلك اللقطات تنبع من ذاكرته، أم أنه اخترعها وظل يعيد تصورها في ذهنه لأيام مما يجعله الآن يظن أنها حدثت فعلًا، أم أنها كانت جزءًا من حلم ما، أم أنه يحلم الآن واحدًا من أحلامه الطويلة المرهقة المزعجة التي تتركه في مزاج متكدر حتى بعد أن ينساها. لكنها حقيقة. فبمكان ما بذهنه، هناك تلك الذكرى التي تبدو واضحة أكثر فأكثر مع الوقت، يتذكر نفسه وهو يلتقط البندقية ويطلق الرصاص. لكنه التقط البندقية وأطلق الرصاص مئات المرات، فهو يفعل ذلك دائمًا. كما أنه لا يستطيع أن يحدد إن تعمد أن يطلق الرصاص على ذلك الرجل الذي يجره خلفه الآن أم أنها كانت مجرد حادثة لعينة.

يقول للكلب:

- طالما نشعر بالشك، فمن الأفضل أن نخفيها.

- كما تحب، ولكن ألا تظن أنه من الأفضل أن ندفنها بأي مكان بالأسفل؟

- ليس آمنًا. أريد أن أخفيها تمامًا.

- حسنًا.

- وأعلم جيدًا أين سأخفيها.

# 14



يحاول «فاراندولا" جاهدًا أن يتذكر أحداث ذلك اليوم. يستطيع الآن أن يرى لحظة موت الحارس واضحة أمامه. يتذكر جيدًا أين كان يقف يومها، كان بالمنطقة العليا من الجبل حيث الجروف والمنحدرات المليئة بالحصى، فهو دائمًا ما يذهب هناك للصيد. كان على وشك إطلاق الرصاص على أحد الماعز الجبلية، لكنه فوجئ بالحارس يقف على مسافة بعيدة عنه ويأمره أن يتوقف، وأن يضع البندقية جانبًا، كان صوته عاليًا، وشعر العجوز بنبرة خبث وسعادة في صوته، كأنه فرح أخيرًا أنه قبض عليه متلبسًا. لم تعجبه تلك النبرة، ولم يعجبه أن الحارس يأمره ألا يطلق الرصاص، فهو يكره أن تُملى عليه تصرفاته. «كيف لهذا المغفل أن يأمرني بذلك؟ فالوادي بأكمله مِلك لي، وكل مخلوق يمشي فوقه مِلك لي!». يعيد «فاراندولا» الكلام بصوت عالٍ ويظن حقًّا أن هذا هو ما قاله حينها. كرر الحارس مرة أخرى: «توقف!»، لكن بصوت أشبه بالصراخ حتى بدت نبرته للعجوز كأن امرأة هي مَن تأمره وليس رجلًا. لكن العجوز لم يضع البندقية جانبًا كما أمره الحارس بل تمسك بها أكثر من ذي قبل، بل فعل ما هو أكثر من ذلك، ووجه البندقية نحوه ليتحداه ويرى ردة فعله. يتذكر الآن جيدًا أنه أطلق الرصاص عليه، وتدوي في أذنيه صوت الطلقات، يتذكر منظر الحارس وهو يقع على الأرض وعلى وجهه علامات الصدمة كأنه لا يصدق ما حدث للتو. يتذكر عينيه وهما تتوسلانه حتى لا يتركه يموت بمكانه هذا، وأن يستدعي أحدًا لنجدته. لكنه لم يستدعِ أحدًا بل تركه وهرع إلى الكوخ وقلبه يكاد يخرج من صدره من الفزع. مع كل يوم يمر، كانت ذكريات ذلك اليوم تبهت وتضيع ملامحها حتى نساها تمامًا. وعادت الأيام كما كانت، طويلة وبطيئة وروتينية. ثم تغيرت الفصول، نزل الثلج وأخفى كل شيء، ثم جاء ديسمبر حيث الانهيارات الجليدية

وكتل الجليد التي تسقط من أعلى الجبل وتستقر على جانبي الكوخ والتي جلبت معها جثة الحارس. احتفظت به بداخلها طوال الشتاء كما تحتفظ الأم بالجنين في رحمها قبل أن يخرج للحياة. ثم ذاب الجليد وتركه وحيدًا مشوهًا بسبب الاصطدام والبرودة، تركه للغربان حتى تقضي عليه نهائيًا.

يكلم الكلب:

- ذلك هو ما حدث.

- لكن هل تتذكر أنك فعلت ذلك؟

- لا حاجة لكي أتذكر، ذلك هو ما حدث.

- انتظر. إن كان ذلك ما حدث فعلًا فأين كنت حينها؟ كنت سأتذكر، ألا تعتقد ذلك؟

- أنت تتجول بمفردك كثيرًا، تندفع وراء أي رائحة تشمها بدون أن تخبرني بأي شيء وتغيب لساعات. لقد حدث ذلك بالتأكيد بمرة من تلك المرات.

- أنا..

كان سيجادله لكنه تراجع، فهو دائمًا يفعل ذلك. كلما يشم رائحة لا يتمكن من تجاهلها، يندفع ليتعقب مصدرها، وينسى حينها كل شيء حتى أنه ينسى صاحبه. ففي تلك اللحظة يشعر أنه حي، وتغمره السعادة كما لو أنه حيوان مفترس لا يخيفه أي شيء.

يكرر العجوز:

- هذا ما حدث. هذه هي الحقيقة. لقد قتلته.

***

يجر العجوز الجثة وراءه حتى يصل أخيرًا إلى المنجم القديم الذي اختبأ فيه من الرجال ذوي المعاطف الثقيلة ومسدساتهم. ينظر حوله إلى الأرض القاحلة والصخور المفتتة فيتذكر ذلك الوقت لكن بصورة مشوشة. تتشابك شجيرات العرعر والصنوبر مع بعض النباتات والزهور التي تنمو في تلك

المناطق الجافة أمام فتحة المنجم فتجعلها محجوبة عن الأعين. يتمتم العجوز لنفسه: «جيد جدًا». فوجود تلك الشجيرات يصب في صالحه، فهو لا يريد أحد أن يميز فتحة المنجم ويعثر على الجثة بداخلها.

يلقي نظرة على جميع الأنفاق ويتجاهل أي نفق يرى أن فتحته كبيرة أو سهلة الملاحظة، ثم يختار واحدًا ذا فتحة ضيقة جدًا وبالكاد تُرى، كما يعوقها تجمعات كبيرة من الحصى والصخور المفتتة. يحرك العجوز الصخور فتندفع إلى أسفل. بعد ساعات، كان قد أزال كمية كبيرة من الحصى وفتات الصخور من أمام الفتحة، ومن داخلها لمسافة ثلاثة أو أربعة أمتار داخل النفق. ينزل على ركبتيه ويدخل النفق على أربع، يضيق النفق عليه بمجرد أن يدخل جسمه كله، فيضطر إلى أن يزحف على بطنه فوق الوحل البارد ليحدد مدى اتساعه.

بالخارج يقف الكلب وهو يركز عينيه على قدمي صديقه حتى لا يغيب عنه.

يسأله:

- كيف الحال بالداخل؟ هل هناك مساحة لصديقنا؟

يتجاهله العجوز ويستمر في الزحف وهو يحتك بالتربة الطرية لجدران النفق ويتقدم وهو يلهث.

يتمتم الكلب لنفسه وأذناه مرفوعتان ويصوب عينيه نحو السماء:

- أكره عندما يفعل ذلك.

بعد نحو ساعة، تظهر قدما العجوز من فتحة النفق، ثم مؤخرته وكأنه طفل يُولد.

يعلق الكلب عندما يخرج العجوز جسمه كله:

- كنت بدأت أقلق.

- لا بد أن أستخرج بعض التربة من الداخل.

- لماذا؟

يخلع العجوز معطفه ويربطه على ذراعيه ويحوله إلى حقيبة ليحمل بها التربة التي سيستخرجها من النفق.

يتنهد الكلب:

- سيستغرق ذلك أيامًا.

***

لثلاثة أيام يذهب العجوز إلى مكان النفق ليستخرج الطين والحصى من داخله ويلقي بها في أحد المجاري المائية التي جفت. يفكر في أنه لن يلاحظ أحد أن الطين بداخل تلك المجاري ما زال رطبًا، فالطبيعة بأكملها تتغير في هذا الوقت من العام. يستمر في اللهاث بينما يستخرج الطين بسبب شدة الحرارة داخل النفق، عندما يخرج أخيرًا، يشاهد الكلب كل حركة تصدر عنه بعناية، لكنه لا يتزحزح من جوار الجثة ويبدو كما لو أنه فقد رغبته في الثرثرة.

بالنهاية يقرر «فاراندولا» أن المساحة داخل النفق أصبحت كافية وتستطيع أن تحجب الجثة جيدًا عن الأنظار، فيأخذ الجثة ويلقي بها داخل النفق ويدفعها إلى الداخل.

يتمتم الكلب:

- ستأتي ثانية أليس كذلك؟

عندما يضيق النفق حتى بالكاد يتسع لجسد واحد، يدخل العجوز إلى النفق ويسحب الجثة من ذراعيها إلى الداخل أكثر.

تصيح الجثة:

- ما الذي تفعله؟ توخَّ الحذر قليلًا!

- أنا آسف.

ما زال المكان كما هو عندما كان هاربًا، فهو يتذكر ذلك النفق وذكرياته به

جيدًا. لا يعدُ الجو بالداخل جيدًا، لكن إحساس الحماية الذي يبعث به المكان هو كل ما يحتاج إليه العجوز. كما أن الآن لديه صحبة وليس الوضع عندما كان بمفرده، إن بحث بيديه جيدًا في تربة النفق، سيعثر على طعام يستطيع به سد جوعه. يشعر العجوز بالطمأنينة عندما يفكر في كل هذا وتسترخي عضلاته تدريجيًا حتى يغط في نوم عميق.

***

يتذمر الكلب من طول غياب صاحبه فيستمر في العواء خارج النفق ويحفر بقدميه الطين الذي يحيط بمدخل النفق ليحاول أن يدخل خلف صديقه. يأمره العجوز بالذهاب بعيدًا، ويهدده بأنه سيضربه بالنار تارة، ثم يلقي بوابل من الشتائم عليه تارة أخرى، مؤكدًا أن لا صداقة تجمع بينهما هما الاثنان وأنه لا يعنيه.

يتوسل الكلب بنبرة خائفة وكئيبة:

- أنا صديقك! أرجوك لا تتركني!

- مَن أنت؟ اذهب بعيدًا، لا أحتاج إليك معي.

- هذا ليس مسليًا. إنه أنا، يكفي هذا، تعالَ إلى هنا.

- كان يجب أن آكلك بأول يوم رأيتك فيه.

- أنت تمزح أليس كذلك؟

- كان عليَّ أن ألتهمك أيها الكلب اللعين!

يرتجف الكلب ولا يرد.

- اذهب بعيدًا وإلا سيعثرون عليَّ!

- لا يمكنني أن أذهب. سأدخل وأبقى إلى جانبك، سأكون مطيعًا كفأر صغير، سنستمتع بصحبة بعضنا بعضًا ونُبقي أنفسنا دافئين، الجثث لا تستطيع فعل ذلك.

- اذهب بعيدًا وإلا أطلقت عليك الرصاص.

- أنت تحتاج إليّ، أنا أعلم ذلك.

- هذا هُراء.

- لا تتركني وحيدًا أرجوك.

يبقى العجوز صامتًا ويتمنى لو بإمكانه أن ينسى ذلك الكلب وينساه الكلب هو الآخر. يلتف الكلب حول نفسه عند مدخل النفق بدون أن يتكلم وتخيم عليه كآبة لم يشعر بها من قبل، لكنه يجد عزاءه في رائحة صديقه التي يشمها وتنبعث من النفق، إلى جانب رائحة الجثة العذبة والقوية.

يصيح العجوز من داخل النفق:

- ما زلت هنا؟

يرد الكلب:

- لا.

يفكر العجوز: «يا له من كلب لعين! بمجرد ما يصلون، سيبدأ في القفز من السعادة كما فعل بأول مرة التقيته، أو هذا ما أتذكره على الأرجح. في الحقيقة لا أتذكر هذا اليوم على الإطلاق، لكنني أعرفه جيدًا، فهو ملتصق بي منذ زمن، على الأرجح يفعل ذلك مع كل شخص يصادفه. هكذا هي الكلاب، تلتصق بك إلى الأبد، وعندما تتركها بالخارج لتؤدي عملها، تنتظرك هناك عند عتبة الباب، وتتبول بمكانها هذا لأنك لست بجانبها، وهي تفضل ألا تذهب إلى أي مكان من دون صاحبها. تلك هي الطريقة التي تتصرف بها».

بمجرد ما يمد أحدهم يده ليداعبه، سيبدأ في هز ذيله فرحًا، ثم يتدحرج على الأرض ويتوسل لطلب المزيد. وعندها يقولون له: «يا لك من كلب مطيع!".

ثم يسألونه الآن: "أين «أديلمو فاراندولا"؟"سيخبرهم على الفور: «إنه هناك، مختبئ داخل النفق». «حقًا؟ شكرًا لك، يا لك من كلب». «لا داعي للشكر سآخذكم إليه، بالمناسبة، ماذا ستقدمون لي على الغداء؟».

هذا هو ما سيفعله ذلك الكلب المشرد.

لم يحب العجوز الكلاب قطُّ.

هذا هو ما سيفعله.

يتمتم الرجل الميت بجانبه:

- حسنًا..

- حسنًا ماذا؟

- ستصبح بورطة إن وجدونا.

- نعم.

- أنا لا أفكر بنفسي، أنا قلق عليك.

يستمع العجوز إلى صديقه الجديد الذي يرقد بجانبه في الظلام والبرودة والرطوبة، ولأن الجثة يصدر منها صرير، فهو يعتذر عن هذا، يفكر بكلامه جيدًا لكنه يظل صامتًا.

تردف الجثة:

- عذرًا.

- لا تهتم.

يفكر العجوز فيما سيفعله مع الكلب.

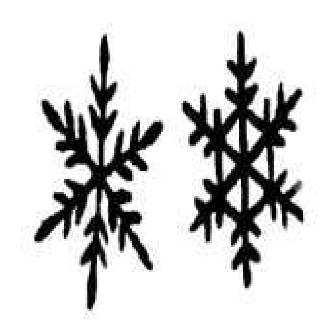
يردف الرجل الميت:

- لم يصلوا بعد، ربما ما زال لديك بعض الوقت.

بالخارج، بدأ الكلب من جديد في النباح والعواء وقد فقد صبره. لقد توقف عن الكلام الآن وعاد ليتصرف كالكلاب العادية ليثير شفقة صاحبه.

يتنهد الرجل الميت:

- يا للملل!



# 15



أخيرًا عندما يتوقف الكلب عن النباح، يزحف «أديلمو فاراندولا» على بطنه خارج النفق، فيجد الكلب نائمًا. في بادئ الأمر، يجد صعوبة في تبين ملامح الوادي حوله، فالقمر ليس مكتملًا هذه الليلة ويبعث بضوء خافت بالكاد يمكنه من تمييز الأشياء حوله. عندما تتضح ملامح الوادي تدريجيًا، يلاحظ جسد الكلب يهتز ويرتجف، ثم يبدأ في البحث عن صخرة مناسبة ليهشم بها رأس الكلب ويتخلص منه نهائيًا.



يدرك العجوز وهو يرفع الصخرة لينزل بها فوق رأس الكلب أنه ليس نائمًا وإنما فقط يتظاهر بذلك. قبل أن تهشم الصخرة رأسه بثوانٍ، يطلق الكلب عواء خافتًا لم يعتده صاحبه منه؛ عواء رقيقًا، يريد أن يؤكد لصاحبه أنه ما زال يحبه ويحب كل لحظة تجمعهما. كان يعلم يقينًا أن ذلك العواء لن يدوم تأثيره وأنه سرعان ما سينساه العجوز، لكنه وجد عزاءه في أنه حتمًا سيشعر بالذنب والندم فور أن ينتهي الأمر. كان بوسعه أن يهرب، فبداخله كان على يقين من أن العجوز سيقتله، لكنه فضل تلك اللحظة الحميمة بينه وبين صديقه الذي اشتاق إليه في أثناء تلك الساعات التي قضاها بعيدًا عنه في النفق، على أن ينجو بحياته، بل إنه ظل ينتظره حتى عثر على صخرة مناسبة وكبيرة بما تكفي.

عندما يعود العجوز مرة أخرى إلى النفق، تسأله الجثة:

- كيف جرى الأمر؟

لا يرد.

- هل أخفيته؟

يهز العجوز رأسه في الظلام رغم أنه يعلم أن الجثة لن تتمكن من رؤيته.

- لن يجدوه، أليس كذلك؟

- لا.

- لكنهم لا يتركون مكانًا إلا ويبحثون فيه.

- دفنته بعيدًا بمكان ما أسفل الوادي. حتى وإن عثروا عليه لن يتوقعوا أننا نختبئ هنا.

- هذا جيد. الآن يمكنني أن أرتاح.

- أخيرًا.

- تصبح على خير يا صديقي.

ثم يغط الرجل الميت في النوم من جديد.

***

يتبدد الصمت الذي يخيم على الوادي فجأة، ويصل إلى «فاراندولا» صوت أشبه بالصراخ يأتي من أسفل الوادي، عندما يركز، يسمع صوت ينادي: «أديلمو! أديلمو!» يشعر أن الصوت يذكره بشخص ما لا يعرف هويته بسبب ذاكرته التي لا تسعفه أبدًا.

- "أديلمو!" يا إلهي! أين أنتَ "أديلمو!"؟

يرتد الصوت بين الجبال ويصل إليه في مخبئه على هيئة موجات متكررة بسبب الصدى، لكنها واضحة وعالية حتى يشعر العجوز أنها تنبعث من ركام الصخور والأحجار حوله.

يتذمر الرجل الميت بجانبه:

- مَن هذا؟

- لا أعلم.

- أتمنى أن يكون هناك مخرج آخر لذلك النفق اللعين.

- لا يوجد مخرج آخر، هذا ما جعلني أختار ذلك النفق.

- آه! يا لها من فكرة عبقرية. الآن سنعلق بمكاننا هذا ولن نستطيع الهروب إن طرأ شيء ما.

مع كل صرخة يسمعها العجوز، يشعر أن الصوت يقترب من النفق أكثر وأكثر لكنه يبتعد فجأة ويتغير مساره.

بعد أن يلاحظ ابتعاد الصوت يردف بثقة:

- لن يجدونا.

- ماذا إن وجدوا الكلب؟

- أي كلب؟

ما زال الصوت بالخارج يردد: «أديلمو! أديلمو!».

يشعر العجوز بالانزعاج ويقرر أن يلقي نظرة خارج النفق لعله يعرف مَن هذا الذي يناديه. يزحف على بطنه حتى يصل إلى فتحة النفق ويخرج رأسه تدريجيًا إلى الخارج وهو مغطى بالرمل والطين فيتفاجأ بنور الصباح القوي الذي يحرق عينيه فيغلقهما بسرعة ثم يفتحهما ببطء حتى يتعود الضوء. بعد أن يتمكن من فتح عينيه، يلاحظ مروحية بأسفل الوادي قريبة من كوخه الشتوي.

يتمتم بصوت خفيض:

- ها هم!

تسأله الجثة العديد من الأسئلة لكنه يتجاهلها.

يفكر العجوز: يجب ألا نصدر أي صوت وإلا سيسمعوننا. ينظر بتمعن أكثر في اتجاه المروحية، فيتبين أربعة رجال يبحثون في أرجاء الوادي، اثنان

منهما يقفان أمام الكوخ والذي يبدو له من موقعه العالي هذا وكأنه مجموعة من الأحجار المتراكمة فوق بعضها في فوضى، وليس كباقي الأكواخ. يأتي الصوت من ذلك الاتجاه؛ رجل عجوز يحمل مكبر صوت يناديه ثلاث مرات في كل مرة قبل أن يتقطع صوته ويسكت وبجانبه رجل آخر.

أما الرجلان الآخران فهما يتسلقان الطريق الضيق المنحدر الذي يؤدي إلى الكوخ الصيفي. ترتسم على وجه العجوز ضحكة استهزاء ويفكر: "يا لهم من أغبياء. هل يظنونني أبله؟". يلاحقهم بعينيه الفضوليتين ليرى ماذا سيفعلون. يختبئ في ظل النفق ليريح عينيه من ضوء الشمس القوي وعندما يتأكد أنه بمأمن وأنهم بعيدون عنه، ولن يجدوه أبدًا لأنهم يبحثون بالمكان الخطأ، يرجع إلى مكانه بالنفق بجانب صاحبه مطمئنًا.

تسأله الجثة:

- رأيت شيئًا؟

- أربعة مغفلين.

- إنه عالم مليء بالمغفلين.

يبدأ الرجل بالخارج في الصراخ من جديد:

- "أديلمو!"، "أديلمينو!".

يتساءل «فاراندولا": "هل أدعى «أديلمينو"؟ "هل يبحثون عني أم عن رجل آخر يدعى "أديلمينو"؟

- "أديلمو!" إنه أنا «أرماندو!».

ثم يتساءل مجددًا: «مَن يكون «أرماندو" هذا؟".

- إنه أنا «أرماندو!» أخوك «أرماندو!» هل تسمعني؟

يا للهراء! يتذكر أن لديه أخًا حقًا ويدعى «أرماندو» لكنه صبي صغير وليس رجلًا عجوزًا.

- بحق الجحيم، أين أنت «أديلمو"؟

يتذكر أن أخاه لطالما كان يردد «بحق الجحيم»، كان يستخدم هذا القسم عندما يريد أن يكون مهذبًا، فيضحك على هذه المصادفة.

- "أديلمينو!". لا أعرف ماذا يمكنني أن أقول لترد عليّ؟ لكنّ معي هنا شخصًا يريد أن يكلمك.

يتوقف الصوت ثم تصدر قعقعة صغيرة من مكبر الصوت ويتداخل الصوتان.

يفكر العجوز: "لا أعرف أي شخص، ولا أريد أن يكلمني أحد، أنا سعيد هكذا".

فجأة يصدر من مكبر الصوت صوت شاب يجعل جسد العجوز يهتز فجأة من الدهشة:

- "أديلمو"، صديقي!

ينصت العجوز.

- هل عرفتني؟ إنه أنا، «ميتولو»، «سيفرينو ميتولو».. الحارس. نحن نبحث عنك منذ مدة وسوف نجدك، لا تقلق، فقط ابقَ هادئًا. سوف نجدك لا تقلق.

يرتبك العجوز لكنه لا يعلم مصدر هذا الارتباك.

فالصوت الأخير الذي سمعه رغم أنه يأتي من بعيد فإنه يبدو مألوفًا أكثر من الصوت الأول، كأنه صوت كان يسمعه منذ مدة ليست ببعيدة ويتذكر أنه كان يشعر بالملل دائمًا عندما يسمع هذا الصوت، لكنه لا يعرف مَن هذا الشاب.

- إنه أنا، «سيفرينو ميتولو»، الحارس. هل تتذكرني؟

هل يتذكره؟ نعم. يتذكر الآن زيًا رسميًا اعتاد أن يراه كثيرًا وشابًا فضوليًا يرتدي هذا الزي ويأتي إليه بالكوخ ليستجوبه.

- على الأقل دعنا نراك "أديلمو". أعطنا أي إشارة إن كان ليس بإمكانك أن تتحرك. أي شيء يدلنا عن مكانك! لا تجهد نفسك، أي شيء صغير حتى لو صخرة فستفي بالأمر. أنت تحتاج إلى مَن يهتم بك. السيد «أرماندو» هنا

وسيهتم بك. إنه يحبك. هل تسمعني «أديلمو»؟

أفكار عديدة غير مكتملة تجول بذهن العجوز الآن ويقرر أن يرجع مكانه مرة أخرى، فهو لا يريد أن يستمع إلى المزيد من الصراخ والنداءات.

يهمس بأذن الجثة:

- إن لم تكن الحارس فمَن أنت؟

- أنا؟ تعني مَن كنت قبل أن أموت؟

- نعم هذا ما أقصده.

- وبمَ سيفيد ذلك؟

- أأنت الرجل الذي يتكلم بالخارج؟

- هذا سؤال غريب.

- لست هو، أليس كذلك؟

- حسنًا. نعم، لست أنا.

يكفهر وجهه ويتردد ولا يعرف بما عليه أن يفكر. يجبر نفسه على أن يرتب أفكاره مثلما يفعل عندما يكون على وشك النوم وتأتي بذهنه ذكرى معينة لا يتذكرها كاملة، فيقضي بعض الوقت يحاول أن يصل الأفكار والصور برأسه ببعضها بعضًا حتى تتجلى الذكرى واضحة أمامه، فيرتاح ويغط بعد ذلك في نوم عميق.

- كيف انتهى بنا الأمر هنا بالنفق إذن؟

- أنت الذي تسألني؟ لقد جلبتني إلى هنا!

- لماذا؟

- لا أعلم. لقد عثرت عليَّ بكتلة جليدية ضخمة وبدلًا من أن تخبر أحدهم، انتظرت حتى تعفنت ثم جلبتني إلى هنا. لا أعلم ما الذي استفدته من كل هذا.

- لماذا فعلت ذلك؟

- لا أعلم. لقد كنت هناك وكان معك ذلك الكلب وبعد ذلك..

- أي كلب؟

- على كل حال لقد كنت مقتنعًا أنك قتلتني.

- وهل قتلتك؟

- لا بالطبع لم تقتلني. وإن قلت لك ذلك في مرة أو وافقتك أن هذا هو ما حدث، فذلك لأن أحيانًا تختلط عليّ الأشياء، فبالنهاية أنا ميت وذلك يفسر هذا التشويش.

- لم أقتلك!

- لا لا فهذا هراء.

- مَن أنت إذن؟

تقلد الجثة أسلوبه.

- لا أعلم. لا أتذكر.

أصبح النفق باردًا فجأة وابتعدت الأصوات بالخارج، ربما فقدوا الأمل وذهبوا بعيدًا. لا يعلم إن كان يجب أن يحزن أم يرتاح لأنهم ذهبوا. يسمع صوت محرك المروحية وهي ترتفع لتستكشف الأودية المجاورة والشقوق.

تهمس الجثة في أذنيه:

- أعلم بما تفكر لكنني لن أدعك تذهب وتتركني هنا. لا تفكر حتى بالأمر.

يسأل العجوز بعد مدة السؤال نفسه مجددًا:

- لكن مَن أنت؟

اختفت جميع الأصوات بالخارج، لكن بداخله يشعر أن هذا الصمت مؤقت، وأنه سيكون هناك العديد من المروحيات والكلاب المدربة وأجهزة الاتصال وكل ما يحتاجون إليه هؤلاء مَن يبحثون عنه ليبحثوا بدقة أكثر.

- هل يهم حقًا مَن أنا؟

- نعم يهمني. هل قتلتك؟

- من الممكن. لكن لا أعتقد ذلك فلا يبدو لي أنك مَن قتلتني. أتذكر أنني تلقيت ضربة قوية على الرأس وأتذكر أنني طعنت هنا، بين عينيّ. شعرت حينها بألم لا يمكنني وصفه. لكنه لم يدم طويلًا، مجرد لحظة. لا أعلم إن كنت أنت حقًا مَن قتلني. لقد بقيت مدة على قدمي. مت وأنا على ذلك النحو. يا لها من ميتة! ثم جلبني انهيار جليدي إليك. هل تسمعني؟

يحاول العجوز أن يدفئ نفسه أكثر بالدفن في تربة النفق ليتخلص من البرد.

تتنهد الجثة بجانبه وتقول بنبرة حادة كالزوجة التي توبخ زوجها لأنه لا ينصت لما تقوله:

- من الواضح أنك لا تسمعني.

يسمع العجوز صوت شيء يتحرك قادمًا من صخرة قريبة منه، فيمد يده ويمسك بحشرة صغيرة الحجم كالخنفساء أو عنكبوت صغير ويتساءل لوهلة إن كانت تلك الحشرة قابلة للأكل، لكن فور أن يضعها في فمه ولا يشعر بأي نكهة، ينسى قلقه ويبدأ في المضغ.

يسأله الرجل الميت بجانبه:

- لماذا تمضغ بهذه الطريقة؟

يتجاهله العجوز، ولكن بعد مدة يقول:

- هل أخبرتك من قبل عن كابلات الكهرباء بقريتي؟

تتنهد الجثة:

- نعم. أكثر من مرة.

- لأنني إن كنت مصابًا بالجنون فحتمًا بسبب تلك الكابلات.

- لقد أخبرتني ذلك من قبل.

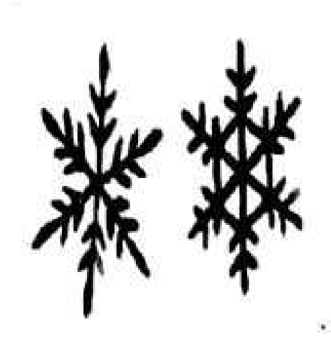
- كانت تمر فوق بيوتنا وكنت أسمع طنينها لسنوات.

- حقًّا؟

- لقد قادت جميع مَن بالقرية إلى الجنون. الرجال والأطفال والحيوانات. جميعنا جميعنا.

يريد أن يقول أيضًا إنه عندما كان يشتد ذلك الطنين، كان الناس يتعلقون ببعضهم. يتشاجر الأبناء مع أمهاتهم، والآباء مع أبنائهم والناس مع الحيوانات. واعتاد كل شخص أن يُرجع سبب تلك المشاجرات إلى ذلك الطنين وليس إلى طبيعتهم العدائية ورغبتهم في الشجار. إنه الطنين هو الذي يخرج أفكارهم السوداوية إلى السطح ويعطيها القوة لتعبر عن نفسها. يريد أن يضيف أيضًا أنه ما زال يسمع طنين تلك الكابلات بأذنه حتى وهو ليس موجودًا، يسمعه داخل رأسه. وأنه إن كان قد أصيب بالجنون فحتمًا بسبب تلك الكابلات وطنينها المزعج المستمر.

هذا ما يود أن يقوله، لكن الرجل الميت بجانبه يتظاهر بأنه لا يهتم.




المزلة
Telegram:@mbooks90
كلاوديو موانديني
ترجمة: مريم خالد
روايات مترجمة